يوسف عماد

بيت القُبرُصي

رواية

Telegram:@mbooks90

الرواق للنشر والتوزيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بَيت القبرصِي

يوسف عماد

الطبعة الأولى: يناير 2024

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: سارة سرحان

الترقيم الدولي: 2-223-824-977-978

رقم الإيداع: 28916/ 2023

٢٧٠٧٣٦٨٢٣٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإهداء

إلى ذكرياتي المؤلمة، وذكرياتي الجميلة:

شكرًا على تكوين شخصية الكاتب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعض الذكريات هي أشد الأشباح رعبًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقف على مُذنَّب ثابت بالفضاء، أسمع الآن دمائي وهي تسبح بداخل الشرايين وصوت الأمعاء المتصارعة، أشاهد فقط وأرى النجوم البعيدة ومركبات الفضائيين يسترقون السمع إلى كوكب الأرض، لونهم ليس أخضر كما تزعم أفلام هوليوود، بل ربما قرميدي. رمقني أحدهم بنظرة شفقة، يبدو أن أخبار البشر البائسة قد وصلت إليه، وربما يعرض عليّ اللجوء إلى كوكبه. هل الطقس مناسب؟ هل كوكبه قريب من نجم يمدهم بالطاقة والدفء كالشمس؟ وبنسبةٍ كبيرة لن يكون هناك وجود للماء. أخي الفضائي، كنت أتمنى أن أتعرف على اسم الكوكب الذي تسكنه حتى أنسبك إليه، ورغم تجسسك على بني جنسي -وهي ليست بأخلاق حميدة- رغم جهلي بطبيعة أخلاقكم، هي مبادرة ومجاملة لطيفة منك لاستضافتي، لكنها ليست مناسبة لبشري مثلي.

اقترب كوكب عطارد من الزهرة، أراقب اقترابهما بحذر، أبحث عن أي شيء أتوارى خلفه، ولكن كل شيء فارغ ومظلم، اصطدم الكوكبان في مشهد مهيب، انفجار نتج عنه تلطخ الفضاء بالألوان، خليط من الأصفر الباهت والرمادي كبيت قديم زالت ألوانه الأصلية، لم تعجبني الألوان، ولكنها على كل حال أفضل من الفراغ السابق.

يقتحم هذا الصمت صوت مرعب، دائرة حمراء مفرغة، أتذكر جيدًا هذا الشكل، أعلنوا عنه قبل قليل، إنها أول صورة للثقب الأسود يأتي من بعيد ويلتهم كل شيء بلا أي استثناء، قفزت من المذنب متجاهلًا عدم وجود أي شيء في الأسفل، وتمنيت من الله أن أسقط على القمر أو المريخ، أو أي مكانٍ بعيدٍ عن هذا المصير.

حي الزمالك.. القاهر 2019

- اسم الله عليك يا حبيبي.. مالك؟!

كان صوت أمي بلهفةٍ بعد استيقاظي بفزع. اعتدلت في فراشي وأنا أحمد الله أن سقوطي كان على سريري في غرفتي، فالحلم السابق كان خلال قيادتي على الطريق، ولولا استيقاظي قبل فوات الأوان لكان سريري الآن في إحدى غرف العناية المركزة.

- أنا كويس مافيش حاجة..

- طب قوم عشان شغلك، إحنا بقينا الضهر!

«حدث تاريخي، أعلن فريق دولي أمس الأربعاء 10 أبريل عن أول صورة لثَقب أسود تم التقاطها بواسطة شبكة عالمية من التلسكوبات تمتد من الصين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مرورًا باليابان وتشيلي وبلجيكا وتايوان».

Telegram:@mbooks90

كان صوت التقرير المعروض على التلفاز هذا الوغد الحقير اقتحم أحلامي وتسلل إلى عقلي اللاواعي حتى ينفرد بي.

- ماشي يا عم الثقب..

أغلقت الشبابيك حتى لا يتسلل الضوء إلى غرفتي بعد ان أسدلت أمي عنه الستار. بعد 29 عامًا من حياتي معها ما زالت تندهش كل صباح من عدم رغبتي في رؤية النور في ساعتي الأولى من اليوم.

أستمع إلى aurora chanson hier encore في أثناء تحضيري قهوتي المفضلة (الاسبريسو الحارقة)، أفضل مراراتها التي تصدمني بحقيقة استيقاظي. دوّنت حلمي أمس أو ما أتذكره منه، أؤمن بأن للأحلام دلالة، سيغموند فرويد فسر أن الأحلام وسيلة تلجأ إليها النفس البشرية لإشباع رغباتها ودوافعها المكبوتة، ولكن ما الدوافع والرغبات في الفضاء؟ من الممكن أنها إحدى طموحاتي في الصغر، أن أُصبح رائد فضاء، ولكن مقاول تجديد ليست بمهنةٍ سيئة حتى أضجر منها، حتى أنني أشعر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشغف ناحيتها، فنان عبقري، شركتي تقوم بتحويل البيوت القديمة المتهالكة إلى تحفة عظيمة، ليتم إعادة بيعها بأضعاف ثمنها السابق.

الآن، وقت ظهور الشمس بالنسبة لي، افترشت كنبتي في الشرفة وأنا أراقب السحب، ربما ترسم شكلًا غريبًا أحوله في عقلي إلى شيءٍ مألوف، أحاول التشبع من شكل السحب في السماء قبل وصول ضيف ثقيل غير مُرحب به وهو فصل الصيف. أقترب من السور، أراقب المارة، هوايتي المفضلة منذ الطفولة التي جلبت لي خبرة لم أكن لأكتسبها في جامعة هارفارد أو أعرق جامعات العالم. أراقب تصرفاتهم ونظراتهم وأحاول تحليل وتوقع حركتهم القادمة، باختصار أعتبرهم قطع شطرنج سوداء، فأنا من يتحكم في البيضاء باعتباره لوني المفضل، كل هذا قبل أن أصاب بهياجٍ سريعٍ، لا أتذكر كيف ألقيث كوب القهوة حتى تهشم، دفنت رأسي بين ذراعي محاولًا كتم صوتي العالي وغضبي.

- مين غيَّر ترتيب الورد دا؟!

كانت أمي قد وصلت قبل صراخي بسبب صوت ارتطام الكوب:

- ما اعرفش يا ابني والله، يمكن البنت اللي جات تنضف!

- أنا قلت 100 مرة ماحدش يغيَّر ترتيبهم، أنا مرتب ألوانهم صح..

الورد يحدد لي مدى جودة يومي، ألوانه المتناسقة تغذي بصري، تلهمني، وإن ذبلت إحداها فهذه رسالة عاجلة إلى هشام حسن الوالي؛ احذر، أنت أُصبت بالإهمال. أعظم الأمراض لشخصٍ دوره في الحياة إصلاح الأشياء حوله وإعادة إحيائها مرة أخرى، بالطبع بإذن من المولى تعالى، فالله جعلني سببًا لإحياء البيوت، كما وهب عيسى ابن مريم إعادة إحياء البشر.

اليوم موعد حضوري لتسليم أحد مشاريعي الفنية في حي وسط البلد، منزل صغير متوارٍ عن الأعين خلف الأشجار، أصبح ملك أصغر أفراد العائلة، شاب في العقد الثاني من عمره ورفض اتخاذه مسكنًا، بيت تقليدي بأثاث بسيط، يشبه الحي القاطن به، أصبح الآن دارًا من دور الفن، تم ترميم كل شيء حتى تلك الحصيرة الكامنة

٢٧٠٧٣٦٨٢٣٧
CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أمام الباب، ربما مرّ عليها جنود من الاحتلال الإنجليزي في إحدى مداهماتهم، أو تلاقت بحذاء سعد باشا زغلول قبل أن يزور طبيبه في الدور الذي يعلو البيت. على كل حال، سأحتفظ بها، فمع كل تنفيذ لمشروع أحتفظ بتذكار بسيط أعود إليه في كل مرة يراودني الشك في موهبتي. اللون الأزرق كان اللون الأساسي، ومقابل الباب مرآة ذهبية مزخرفة استلهمتها من الفن الرومانسيكي.

- عظيم.. عملتها إزاي؟ دي الشقة بقت حاجة تانية، أنا مش مصدق! أنا سمعت عنك كتير بس ما كنتش فاكر إن للدرجة دي، اتعلمت كل دا إمتى؟ أنت شكلك صغير!

حاولت إخفاء علامات الغرور وجنون العظمة المصاب به أحيانًا في لحظات الثناء عليّ. اخفِض ذقنك لأسفل قليلًا، أخرِج يدك من جيبك أيها المتعجرف، اكتفيت برشفةٍ من القهوة إرضاءً للكاميرات التي تلاحقني وتقوم بتصوير كل لحظات حياتي وكلماتي بالطبع في خيالاتي فقط.

- أنا وارث دا عن أبويا، كان بيتشغل نفس الشغل بس على الضيق، بلدي يعني، وفضلت أتنطط من بيت لبيت معاه لغاية ما لقيت عيني بتحلل لوحدها فين مكان الخلل وإيه المناسب للمكان، عندي أصحاب في كل بيت، الحيطان بقف أتكلم معاها كدا وآخد رأيهم إيه اللي هيليق عليهم أكتر، كبرت ولقيت إن الموضوع المفروض يبقى احترافي، فتحت شركتي وزي ما أنت شايف برمم البيوت عشان بعد كدا آخد نسبة من إعادة بيعها، ولو هتتأجر باخد تمن شغلي، وفي خلال الـ3 سنين اللي فاتوا بقيت زي ما أنت سمعت كدا.

قاطعتني رسالة من عصام السمسار مفادها: «مستنيك في المكتب، عندي مفاجأة». في كل مرة يكون الأمر طبيعيًا، يجلب لي المنازل مقابل نسبة بسيطة، حتى أصبح الأمر طبيعيًا وأَلِفناه، سمسار مثل عصام وقدره لا يطلق كلمة مفاجأة على أي عمل كالمعتاد، اشتقت إليه اشتياقًا غير مسبوق، فلم أشتَق له من قبل -دا عصام يعني. أقود سيارتي بسرعة وأتغنى بصوتٍ عالٍ بلهفةٍ كطفلٍ صغير، كعاشق لمعشوقته الأبدية، فأنا اتخذت قرارًا بالزواج من العمل بعد تجربة غير موفقة للزواج من (ليلى) ابنة إحدى صديقات أمي المقربات، بعد محاولات مستمرة منها، أدب،

أخلاق، جمال، نسب، حسب، مع عدم إدراكي لمعنى الحسب وما علاقته بالزواج، ولكن كانت تلك مواصفات أمي حتى أنجذب إلى ليلى، ولكنها نسيت أهم شيء، التدخين، الآنسة الجميلة ليلى تفاجأت بها صدفة، وعلمت أنها مُدخنة شرهة، وبعد علمي فورًا واجهتها بمعرفتي. من العبث أن أتزوج من مدخنة، كيف سأعيش معها في بيتٍ واحد وأنا أعاني من حساسية الصدر المزمنة؟! مستحيل. أعلم أن عنترة بن شداد لجأ إلى خيانة عبلة 30 مرة وتزوج غيرها 7 بسبب شخيرها الذي سبَّب له الأرق، أو تدخينها المستمر، ليقوم بالحفاظ على لياقته في الحروب والغزوات، إن كان هو السبب يا صديقي فأنا فخور بك على كل حال.

اقتحمت مكتبي فورًا، اهتزت القهوة في يد عصام، استلقيت على كنبتي المعلقة.

- لو بعد الحماس دا كله الموضوع ما طلعش يستاهل أنت ما تعرفش أنا هعمل فيك إيه!

- نفسي تبقى مدير شركة محترم وتدخل بأدب كدا وذوق!

- سيبتلك أنت الأدب والذوق، وهسيبلك مكافأة حلوة كمان لو المفاجأة عجبتني.

- بيت جديد، أو حاليًا قديم يعني...

- وإيه المختلف عن كل مرة عشان يبقى مفاجأة؟

- فيه ملف بعته لك على الإيميل، افتحه كدا وشوف التفاصيل.

الحماس وصل إلى أقل مستوياته حتى أوشكت على طلب متبرعين يحملون نفس فصيلة دمي يمدونني بجرعة قبل أن أفقد السيطرة على الموقف. أستكشف تفاصيل المنزل، منزل مهجور منذ سنوات طويلة، على مساحة 611 مترًا، حديقة خاصة ومقتنيات قديمة، وطابقان، كل تلك التفاصيل طبيعية، حتى وصلت عند سعر البيع، فهو لا يليق بأي شقة صغيرة حاليًا.

- إيه السعر دا؟!

- ما هي دي المفاجأة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أكيد فيه حاجة في البيت هي اللي خلّت سعره كدا!

- روح وشوف بنفسك، صاحب البيت وارثه وما سكنش فيه، وعايز يبيعه بالسعر دا عشان مسافر، ولو ما لحقناش نشتريه هيتباع فورًا.

- هو رغم إن حتى المبلغ دا مش معايا دلوقتي، بس هتصرف وأشتريه. دا لو حصل هيبقى أكتر مشروع ممكن نكسب فيه..

تحركت بسيارتي مع عصام إلى مكان المنزل، لم ألاحظ أن سرعتي تخطت الـ200 حتى نبّهني عصام بفزع، عقلي قام بشراء سيارة فيراري جديدة وساعة ماركة روليكس وتركيب ضرس ذهبي محل ما فقدته ولم ينمُ مرة أخرى، وجدت نفسي أزاحم قارون في كنوزه وأقف ندًا لمنسأة موسى، وألقي بذهبه إلى المحيط وأزعج معتز جاري صاحب سلسلة محلات البقالة الذي اعتاد على التفاخر أمامي بأمواله التي جعلته يطلب مني مشاركتي، أحلام ثراء تظهر أمامي مصوَّرة كفيلم يعرض على زجاج سيارتي الأمامي.

مررت بمزرعة كبيرة على الطريق المؤدي إلى المنزل، جعلته منعزلًا تمامًا عن العالم الخارجي، يناسب ثريًا متقاعدًا يبحث عن الهدوء، أو جاسوسًا ألمانيًا مختبئًا من السوفييت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مكان استراتيجي تدخل إليه الشمس من كل الاتجاهات. من مسافة كيلومترين بدأ المنزل في الظهور، وحيدًا لا يداريه أي شيء، علوت عن الكرسي قليلًا واقتربت برأسي ناحية الزجاج حتى أراه بوضوح، اقترب غروب الشمس، قابلنا حارس المنزل ضبع، ليس بنوعه بل اسمه، وربما النوع، لا أدري، فهو يشبهه كثيرًا، نحيف وشاحب الوجه بجلباب واسع، هرول تجاهنا:

- أهلًا يا باشاوات، اتفضلوا!

حديقة المنزل باهتة، بها آثار لأشجار وحشائش، والآن ليس بها إلا التراب، وشجرة رقع كبيرة تتوسط الحديقة، ممر خشبي مثبت على الأرض من الشجرة إلى باب المنزل المكون من درفتين يعلوه تمثال لرأس ضأن بري بقرنين عظيمين، أربع نوافذ

٢٧٠٧٣٦٨٢٣٧
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زجاجية، تحطّم أغلبها ورُقّع بالخشب، والسقف هرمي، تخرج منه مدخنة مزخرفة، بجانب الباب لوحة رخامية متهالكة مدون عليها ما يشبه (بيت القبرصي)، ورسمة أخرى لحيوان الضأن البري. فُتحت الأبواب على مدخل المنزل، نافورة مياه معطلة، يتوسطها تمثال (أبولو) إله الموسيقى والشعر عند الإغريق، يشير بيديه باتجاه بيانو قديم مغطى يعلوه برواز ضخم للوحة لرجلٍ ببدلته السوداء وشارب مبروم على شفتيه، يقف في شموخ متكئًا على عصاته وينظر إليّ في تحدٍّ، لم أحتج إلى خلايا عقلي حتى أتوقع أنها صورة القبرصي صاحب المنزل.

- دي صورة صاحب البيت؟

ليرد ضبع مسرعًا:

- آه يا باشا، دي صورة القبرصي باشا.

- ودا كان إيه يعني؟ سياسي ولا عسكري ولا رجل أعمال ولا إيه بالظبط؟

- الناس بتقول إن دا يا باشا كان راجل تاجر أخشاب كبير جدًّا من سنين طويلة أوي، كان قاعد في البيت هنا مع مراته، وما كانش مخلف، وفي مرة سافر ما رجعش تاني، فيه اللي بيقول غرق وفيه اللي بيقول ساب البلد، المهم إن ماحدش شافه تاني، ومراته فضلت مستنياه يرجع، وقبل ما تموت باعت البيت، وفضل يتنقل بقى من مالك للتاني لغاية ما بقى حاله كدا.

- وهو فيه حد عاقل يبيع بيت زي دا بعد كل السنين دي وبالسعر دا؟

- الله أعلم، بس هو الباشمهندس أحمد قال إنه عايز يبيعه عشان هيسافر يتعلم برّا، وهو مش مستفيد بالبيت في حاجة، دا غير إن دماغه كدا غريبة، مش بتاع شغل زي أبوه.

على مدار صعودنا سلم المنزل إلى الدور التالي لوحات القبرصي ظلت تلاحقنا على الجدران.

- والقبرصي دا كان أجنبي؟ من قبرص يعني وجه يشتغل هنا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والله ما حد عارف، ويمكن كانوا بيقولوا عليه قبرصي دا لقب يعني عشان خواجة وكدا، وماحدش فاكر اسمه الحقيقي أصلًا، كان خواجة آه بس كان بيتكلم عربي.

- عنطزة فارغة يعني..

في الطابق العلوي، ممر طويل وثلاثة غرف، غرفة نوم القبرصي لم يتبقَّ منها شيء إلا السرير ومرآة طويلة، من الواضح أن القبرصي كان نرجسيًا يحب رؤية صورته في كل مكان، أشك في أن قصته كانت ستصبح أسطورة أفضل من أسطورة (نركسوس) صاحب العقدة النرجسية الذي ظل ينظر إلى انعكاس صورته في البحيرة ولم يستطع مفارقتها حتى مات. عزيزي نركسوس، نأسف على ما سببناه لك من أذى والظلم الذي تعرضت له والافتراء عليك، كان لديك سببًا مقنعًا للوقوع في حب نفسك بما أوتيت من جمال، ولكن ذلك العجوز صاحب (الكرش) للأسف ليس له أي مبرر.

غرفة أخرى، بها مكتب صغير وورق منثور وعلبة حبر جفت منذ سنوات وكرسي بثلاثة أرجل، وبجانب المكتب نافذة صغيرة بها أربع مربعات زجاج وهي النافذة الوحيدة السليمة. مسحتها بيدي حتى أستطيع رؤية ما بالخارج، لم أتذكر وجود ذلك العجوز بالأسفل عند وصولنا، يقف يراقب المنزل ويدخن السجائر بجانب سيارة من نوع جيب جراند واجونير، أبوابها عليها تصميم خشبي أتذكرها جيدًا، كان يمتلكها أبي في الماضي، انتبه إليّ سريعًا وابتسم بلطف ورفع يديه في تحية، ابتسمت وهززت رأسي. مررنا بالغرفة الثالثة، بها باب حديد أسود مغلقة بقفل ضخم.

- فين مفتاح الأوضة دي؟!

- والله يا باشا ما أعرف، بس هنتصرف، هسألك الباشمهندس أحمد ولو ماعهوش المفتاح هنكسر القفل، سهلة بعون الله.

في أثناء خروجنا، أزحت الستار عن البيانو كمُقدم عروض سحرية، امتلأ المكان بالتراب وبدأنا في السعال، رفعت غطاء المفاتيح وضغطت على أحدها، ملأ صدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صوتها جميع أنحاء البيت بخشوع عظيم.

- الحاجات دي كلها مهمة، ممكن نبيعها بعدين، هتنفع.

توسعت حدقتي عيني عصام ووضع يده على كتفي:

- يعني خلاص هتشتريه؟!

- آه، إديني يومين بس هبيع العربية وهحاول أتصرف، وهكسر وديعة كدا كنت عاملها في البنك.

- هتبيع عربيتك؟!

- أومال هعمل إيه؟! هتتعوض بعدين بإذن الله لما نشتغل على البيت ونبيعه.

تابعنا ضبع إلى سيارتي، ولم أجد أثرًا لذلك العجوز الذي رأيته من الأعلى، خشيت أن يكون مشتريًا آخر يفكر في المنزل.

- ضبع، بعد إذنك تبلغ الأستاذ أحمد إني هشتري البيت خلاص، هكلمه أول الأسبوع عشان نقعد نمضي العقد.

- حاضر يا باشا، ألف مبروك، ربنا يجعله وش الخير عليك.

في الليل، وبعد يوم طويل ومرهق، تم تسجيل رقم قياسي جديد باسمي في الوصول إلى مرحلة النوم العميق.

وبعد لحظات، استمعت إلى صوت عزف البيانو، عزفًا تصاعديًا، أنزلت قدمي على سطح رخامي بارد لم أعتد عليه في أرضية غرفتي الخشبية، بدأت أدرك محيطي من نور القمر المنعكس على المرآة الطويلة المقابلة للسرير، فأنا أنام على سرير القبرصي، تقدمت بحذرٍ ناحية الباب وخرجت من الغرفة.

تعالت أصوات البيانو، أدركت الصوت من مقطع (No Valsc Mclancoliquc) أعرفه جيدًا. تمشيت في الطرقة الطويلة المطلة على مدخل المنزل، أشاهد القبرصي على كرسيه أمام البيانو بحالته القديمة المزرية، لم يتغير، يعزف مقطوعته في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هدوء، تتراقص على عزفه امرأة ذات شعر أحمر بفستان ووشاح أبيض يليق تمامًا بلون بشرتها. اختيار موفق سيدتي، تتمايل وتلتف بانسيابية على إيقاع عزفه. كل بضع ثوانٍ يدير القبرصي رأسه لينظر إليها مبتسمًا. نزلت درجات السلم بعد وقتٍ طويل، لا أدري هل من الخوف أم من إعجابي بعزف هذا العجوز، وصلت حتى رأيتهما في مشهدٍ جميل، برواز ضخم بداخله صورة القبرصي يحجبها التراب إلا بعضًا من ملامحه يجلس أسفلها صاحب اللوحة، يعزف لفتاةٍ بملامح اسكتلندية، تدور حوله في مدار محدد ككواكب تلتف حول نجمها. يتصاعد صوت العزف بحماسٍ لا يليق أبدًا بمتوفى مثله. اعذرني، ولكن مَن في عمرك في الحياة مُصاب بالتهاب مفاصل. انتهى من عزفه واحتضنها، اقترب مني يمشي في شموخٍ مهيب، يضع يديه اليسرى خلف ظهره، وبيده اليمنى يهذب شاربه. أصبح على مقربةٍ مني حتى بدأت أستمع إلى أنفاسه، وأتصبَّب عرقًا، ولكن أحاول أن أخفي الرعب بالنظر في عينيه. ابتسم بنصف شفة فقط، ووضع يده على كتفي..

- مبروك البيت..

ثم رفع رأسه يتفحص كل أرجائه، في السقف والزوايا، ثم نظر إليّ مرة أخرى:

- بيت جميل جدًا.. تخيل عِشت هنا سنين وعمري ما فكرت أسيبه ولا هسيبه، أنا لسه هنا بكل حاجة فيا، بس للأسف ما ينفعش يعيش فيه اتنين، إما أنا أو أنت، وأنا ما بحبش الضيوف.. نهائي.

بدأت حوائط البيت في التصدع، التشققات تتسابق مع بعضها البعض على الوصول إلى أبعد نقطه ممكنة. يد سحبتني إلى خارج المنزل بسرعة، وقفت أراقب انهيار البيت والقبرصي بالداخل يراقب في جمود. نظرت خلفي إلى مَن قام بسحبي..

- بابا!

- بابا إيه يا حبيبي! أنا ماما.. اصحى.. بقالي ساعة بصحّي فيك مش عايز تصحى!

في غرفتي كما أنا، لم يتغير أي شيء، القبرصي كان يستضيفني خلال الحلم في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منزله فقط. انتهيت من طقوس الصباح، وقبل أن أذهب كان عليَّ إخبارها بكل شيء. طلبتُ من أمي الجلوس للتحدث في أمرٍ مهم، بدت عليها علامات القلق قبل أن أتحدث.

- بصي، أنا هبيع العربية النهاردا وهسحب الوديعة اللي كانت في البنك، عشان عندي مشروع مهم جدًا محتاج له فلوس.

- هتبيع العربية وتسحب الفلوس! عشان إيه كل دا؟!

- بيت كدا لقطة وقع قدامي، هنشتغل عليه وهبيعه، وبإذن الله فيه مكسب كويس جدًا، وهرجع كل دا تاني وأكبر.

- أنت كمان! هو مش كفاية أبوك؟!

- أنا مش هتحاسب على اللي أبويا عمله، ومش لازم عشان هو فشل في حاجة يبقى هفشل أنا كمان زيه!

- أنت ما بتتعلمش، واللي ما بيتعلمش آخرته سودا. أبوك كان زيك كدا، اتهوس بالشغل والنجاح لغاية ما باع كل اللي وراه واللي قدامه عشان مشروع زي اللي بتقول عليه، وفي الآخر إيه اللي حصل! الأرض والبيوت كان عليها مشاكل واتسحبت منه وخسرنا كل حاجة، ومات بقهرته بعدها بشوية، وكويس إننا سيبنا الشقة دي وإلا كان زمانًا مرميين في الشارع. فأنت جاي بعد كل دا تعمل زيه؟

- أنا ما بعملش زي حد، أبويا اللي شال شيلة أكبر منه، أنا كل اللي هعمله بيت قديم هشتريه وهشتغل عليه وهرجع أبيعه بأضعاف تمنه، أسيب حاجة زي دي هتكسبني عشان خايف أعمل زي أبويا؟! وبعدين أنا هسحب جزء من الوديعة والجزء اللي باقي هسيبهولك في البنك باسمك عشان تطمني.

- أتطمن لإيه؟ أنا خايفة عليك أنت.. على مستقبلك!

- وأنا بعمل دا عشان مستقبلي، وهفضل أعمل دا لغاية آخر يوم في عمري. مش هعيش بترعش كل ما يجيلي شغل عشان خايف أخسر فلوسي وأفضل محبوس في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضي. أنا اللي رجعت كل دا وأنا اللي جبت الفلوس والعربية بشغلي، ووقفت على رجلي تاني بعد ما خسرنا كل حاجة. دا قراري وأنا أخدته خلاص.

نظرت إليَّ في يأس وهزت رأسها وذهبت، جلست بمفردي ولأول مرة يتسلل الشك بداخلي مرة أخرى بعد كلماتها، بدوث أمامها واثقًا حتى تقتنع، ولكن من الواضح أن الخوف بداخلي، والدليل وجود أبي في حلم بيت القبرصي، ولكني لن أتراجع حتى وإن كانت مغامرة.

بعد يومين، أرسل هذا المجهول المهندس أحمد وكيله ليمضي العقود ويستلم الأموال. أصبح بيت القبرصي بيتي الآن، سأنتزع تلك اللوحة الكامنة بجانب الباب وأضع في مكانها لوحة جديدة تحمل اسم (بيت هشام حسن الوالي - بيت القبرصي سابقًا) ولكن بخط صغير لا يُقرأ. أول ما وقعت عيني عليه عند دخولي تلك المرة إلى المنزل، البيانو أسفل البرواز، أتذكر أنني تركت غلاف لوحة المفاتيح مرفوعًا وضغطت على مفتاح وحيد، ولكني الآن أرى آثار أصابع على لوحة المفاتيح بالكامل!

- ضبع، أنت بتلعب في البيت بالليل؟

ليقسم لي كائن الضبع بعدم مروره بالقصر إطلاقًا:

- يا بيه، أنا دوري إني أقف برًا البيت بس ما بدخلهوش، أصل بيني وبينك البيت بالليل تقيل.

- يعني إيه تقيل؟!

- تقيل كدا روحه مش حلوة، أوقات أسمع حاجة، ألمح حاجة بتتحرك، أنت عارف البيوت اللي مش مسكونة بتكون عاملة إزاي.. فما بدخلهوش أساسًا.

- أنت جاي تقول لي دلوقتي الكلام دا؟ إيه شغل أفلام الرعب الرخيص دا؟ أشتري بيت بسعر قليل وبعدها أروح ألاقي أشباح وكدا؟ اعقل يا ضبع، أنت الأفلام اللي بتتفرج عليها شكلها جننتك!

مررت بالمنزل أنا وعصام، وفي كل ركن نكتشف شيئًا جديدًا من أنتيكات صغيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثبتة في الحائط، وزخارف تطلب باستحياء الترميم حتى لا تختفي. أتفقدها وأواسيها، أعتذر لها عن التأخير، لاحظت زخرفة لطفل بأجنحة ملائكة بجانب السلم، كان يبكي وهو يعزف على آلة القيثارة، ظننته يبكي من التهالك، أخرجت منديلًا أمسح عنه التراب.

- البنت الديزاينر الجديدة اللي قلت لي عليها ما جاتش ليه لغاية دلوقتي؟

- ما إحنا كنا مشغولين في موضوع البيت وقلت بعد ما نخلص!

- وآدينا خلصنا، خليها تبقى عندي هنا بكره رغم إن أنت عارف إني ما بحبش شغل البنات وأنت اللي أصريت.

- ما تقلقش، شاطرة جدًا.

طلب عصام المغادرة، وأكملت أنا معاينة المنزل، غربت الشمس، بعض المصابيح فقط تعمل باللون الأصفر الممل، أعطى جدران المنزل هيئة كوكب المشترى الذي رأيته في حلمي السابق من بضع ليالي، أكانت رسالة تبشيرية بمجيئي للبيت؟ أتمنى أن لا أجد ثَقبًا أسود هنا أيضًا. تفقدت غرفة القبرصي مرة أخرى، قمت بالتنقيب في الأدراج، وجدت فرشاة شعر قديمة تحمل بعض الخصلات الحمراء، تشبه إحدى مقتنيات عائلة مالكة في الماضي، من الممكن أنها قطعة أثرية ربما قام بشرائها من مزاد أو سرقها أو أيًا كان، في الغالب سيصبح لها سعر، أخرجتُ هاتفي وقمت بتصويرها حتى أقوم بعرضها على أحد المختصين لتقدير ثمنها وتركتها على المنضدة تمهيدًا لحملها حين ذهابي.

أكملت تفقد الغرفة، لمست اهتزازًا خلفي في المرآة الطويلة، أوهمت نفسي أنه بسبب الهواء، ولكن الغرفة كانت حارة، دافئة، خالية من أي تيارات هواء. تلفتُّ ونظرت، صُعق رأسي بالمشهد وزاد محيط بقبق عيني إلى الضعف، رأيت في انعكاس المرآة تلك الفتاة صاحبة الشعر الأحمر تقترب من المنضدة، تحمل الفرشاة وتمشط بها شعرها لثانيتين، ثم نظرت إليّ بلَوم ومضت إلى باب الغرفة وخرجت. بعد أن زالت رعشة قدمي تحركت ناحية المنضدة.. لا وجود للفرشاة! كانت حقيقية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تكن مجرد هلاوس.

أخرجت هاتفي وتفقدت الصورة وأنا مُمسك بالفرشاة، وبعد تقريب الصورة وجدتها، ظهرت في طرف الصورة عند الشرفة، مختبئة، تنظر بعينٍ واحدة من خلف أبواب الشرفة نظرة غيظ وترقُّب. حين وصلت إلى الممر خارج الغرفة لم أجدها كالمتوقع، حقيقة أو أضغاث أحلام كما يحدث لي دائمًا، أم أنها لص اعتاد على سرقة المنزل السنوات الماضية أو العيش به خلسة دون أن يدري أحد؟ ولكني رأيتها في رؤيا القبرصي، هي بكل تفاصيلها، أتذكرها وأتذكر فستانها الأبيض الذي جعلها تشبه الأشباح... تشبه؟!

- هي في الحقيقة شبح!

خرجت من البيت، ثم لجأت إلى شجرة الرقع، جثوت على ركبتي أمامها أنظر إلى المنزل، أفكر في الأمر. لن يكون بتلك السهولة كما اعتدت في عملي. ليس هناك أي احتمالية للفشل، الفشل يعني خسارة كل شيء ولم أعتد على الخسارة، حتى لو اضررت إلى ترميم المنزل في وجود القبرصي وحرمه. ابتعدت عن المنزل بخطوات، أفكر في كيفية رجوعي إلى الطريق الذي يبعد بمسافةٍ طويلة، التفت حولي. قابلني بابتسامةٍ وبوجهٍ متورد رغم عجزه وبسيجارته المعتاد على وجودها بين أصابعه وقبعة Newsboy تعطي عنه انطباع عصابات أوروبا في القرن الماضي.

- تعالى تعالى!

قالها وانصرف إلى عربته وقادها إلى مكاني، جلست بجانبه، ظللت بضع ثواني دون أي كلام.

- عجبك البيت؟

- جدًا، مش عارف أقول لك قد إيه الصراحة...

ضحك لأول مرة بصوتٍ عالٍ:

- هما ظهرولك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت شكلك تعرف البيت كويس!

- أنا يا ابني عايش هنا من سنين طويلة، اللي بيسكن البيت دا ما بيمشيش، هنا حاجة تانية.

- أنت بتقول كدا عشان عشت سنين عمرك بس هنا فمتعلق بيه.

- ومين ما اتعلقش بيه؟ أنت بقالك يومين بس واتعلقت بيه، بذمتك مش نفسك تعيش فيه؟

- لا مش عايز، أنا شغلي إني أرجعه أحسن من الأول وأبيعه وأرجع فلوسه من غير وجع الدماغ، مش عايز يبقى ملكي.

- كداب، الامتلاك دا غريزة عند الإنسان، دا من كتر ما الغريزة دي قوية كان الإنسان بيمتلك إنسان زيه عشان يبقى عبد عنده. تقولي مش عايز يبقى ملكي؟!

Telegram:@mbooks90

- لو ما اتصلحش وبعته هخسر كل حاجة!

- واضح من غير ما تتكلم، أنت بعت عربيتك كمان!

- وعرفت إزاي؟

- يعني واحد معاه فلوس يشتري البيت دا مش هيبقى معاه فلوس لعربية وهيستناني أوصله؟

- أظن إن تأثير الأحداث داخل بيت القبرصي على ذكائي كان كبير.

أوقف سيارته عند الوصول إلى أول الطريق.

- أي يوم موجود وعايزني أوصلك انزل لي، أنا موجود على طول.

- شكرًا.. اسمك إيه معلش؟

- قدري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البشر لا يكتفون من التسبّب في المتاعب،

حتى بعد موتهم،

يصبحون أشباحًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الليل، قلق النوم قام باصطيادي، قاربت الشمس على الظهور، يئست من محاولات النوم دون جدوى، قررت الاستيقاظ، أطرافي مُقيدة وكأنها أحجار ثقيلة وضعت لتصلبني، لا أستطيع التحرك، أستمع إلى صراخٍ عالٍ لا يأتي من خارج جسدي، بل من داخل عقلي متجهًا إلى أذني، حتى ظننت أنني سأصبح أصَم بعد لحظات، أجاهد حتى أفتح فمي وأصرخ أو أنادي، ولكني أصبحت أبكم أيضًا، لا إراديًا كنت أنظر إلى الشيء الساكن الموجود على كرسي في زاوية غرفتي، رأيتها تجلس في ثباتٍ مُخيف تنظر إليّ في شفقة. قامت وفي يدها فرشاة شعرها، اقتربت مني ووضعتها بجانب رأسي، أغمضت عيني حتى لا أراها، ضربات قلبي زادت بشكلٍ غير مُسبوق، صوت الصراخ العالي انخفض، وبعد ثوانٍ اختفى تمامًا. حركت إصبع السبابة كأنني أتشهّد في صلاتي، إلا أنني نائم الآن. كنت حريصًا في فتح جفوني حتى أتفادى أي مفاجأة، ولكنها لم ترحل، بل اقتربت أكثر، وجهها مقابل وجهي، وشعرها الأحمر يحاوط كل زوايا الرؤية، كأنها العالم أو سقف تابوت دُفنت بداخله. فتحت فمها واخترق صوت صراخها الصمت، كل الصرخات التي كنت أسمعها من لحظات خرجت منها الآن، وكأنها تبتلع بداخلها الجحيم، ثم استيقظت واختفى كل شيء إلا الفرشاة، ظلت بجانب رأسي في نفس الحالة ولكن بقايا الشعر الأحمر به اختفى.

- بقى كل دا عشان تنضفي الفرشة! هو أنا هعملك عمل؟

قلتها وأنا أتحدث إلى سقف غرفتي في جنون، وكانت تراقبني أمي من على الباب، شعرت بالفزع فاعتدلت.

- إيه يا ماما! هي ناقصاكِ أنت كمان!

- أنت اتجننت خلاص يا هشام! بتكلم نفسك؟!

- لا، سرحت بس وأنا بفكر، مافيش حاجة.

- الله! شكلها حلو الفرشاة دي، وريني!

- لأ، دي الذات لأ، اسمعي كلامي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ليه إن شاء الله؟ بتاعت مين؟ أنت بتبدئ على أمك واحدة جايب لها فرشة ومستخسرها في أمك؟

- مش وقت دراما خالص دلوقتي، وبعدين هروح أجيب لواحدة فرشاة ليه؟

- ما دي أكيد مش ليك، دي بتاعت مين؟

- أما، مش لازم تعرفي برضو، خليكِ أنتِ بعيد عن الحوار، دا حوار كبير أما نشوف آخرتها.

لم أجد إلا عصام أشاركه ما حدث، ظللت أحكي ما حدث بالتفاصيل، أخرجت الفرشاة من حقيبتي وأريته صورتها على هاتفي، أحكي بانفعال حتى أني كنت أمثل، أقف أمام المرآة في غرفة القبرصي وأقوم بتمثيل ما حدث، تعابير الوجوه والخطوات على سرير القبرصي، ارتميت أعيد معاناتي في حالة شلل النوم التي أصابتني، يراقبني عصام باهتمام ويرفع حاجبيه في تعجب، وبعد أن انتهيت قام بالتصفيق والضحك دون أن يُعقب.

- أنت بتضحك؟! بعد كل اللي حكيته لك بتضحك؟

بدأ في الكلام وهو يحاول كتم ضحكاته التي خانته وظهرت في نبرة صوته:

- ما أصل أنا عارفك يا هشام، إحنا عشرة عمر، خيالك واسع يا حبيبي. أنت بتتخيل وتحلم وأنت صاحي مش وأنت نايم كمان؟!

- طيب أنا بتخيل وبحلم، ماشي أنا معاك، الفرشاة دي إيه اللي جابها البيت عندي وأنا بقول لك ما لقيتهاش بعد ما سيبتها هنا؟ دا برضو خيال؟

- آه، هتلاقيك نسيت وأخدتها معاك. بص أنا عارف إن المرة دي التحدي صعب، والشغل أكبر من كل مرة، وإنك مضغوط، بس أنا واثق إنك قدّها وترجع فلوسك وتكسب كتير، أنت بس سيبك من القبرصي والوليّة اللي بشعر أحمر دي وما تفكَّرش.

- وليّة؟ حسبي الله ونعم الوكيل في اللي يحكيلك على حاجة..

- يا عم أنا آسف، الكونتس حرم القبرصي باشا، تمام كدا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- خلاص أحسن تيجي على السيرة! فين البنت الجديدة؟

- لسه مكلماني، عشر دقايق وهتكون هنا.

استعرت مكتب القبرصي السابق للجلوس عليه في أول مقابلة للموظفة الجديدة إرضاءً لغروري، نأسف للإزعاج قبرصي باشا، أتمنى أن يكون استخدامي لمكتبك لا يثير غضبك، وأن لا تشرفني بزيارتك الكريمة لي مثل حرمك، فلا أحد منكم مُرحب به أبدًا. سمعت ثلاث طرقات على باب المكتب، طرقات نسائية لطيفة، لم أعتدل في جلوسي محاولًا إظهار اللامبالاة.

- ادخل!

حين رأيتها. أعطتني إيحاء بأنها تلميذة أتت لأعلمها، شعرها الأسود الطويل، عيناها الواسعتان تعلوهما عوينات دائرية وشنطة ظهر أكدت افتراضي، ملابس شتوية من الصوف أكبر من مقاسها خمس نمر على أقل تقدير من الواضح، اختفت بداخلها ولم يعثر عليها أحد. تشبك أصابع يدها من التوتر وتقف عند باب المكتب تستأذن الدخول بعد أن أذنت لها «الغبية».

- اتـ.. فضـ.. لي!

نطقتها متقطعة وأنا أنظر إليها في تعجب.

- إزي حضرتك؟ أنا فرح، أستاذ عصام كان مكلمني على شغل في شركة حضرتك..

- إيه أول حاجة أخدتِ بالك منها أول ما دخلتِ البيت المفروض نشغل عليها؟

بدأت في فرقعة أصابعها وهي تحاول النظر إلى كل مكان إلا عيني:

- السلم، السور بتاعه واقع...

- بديهي يعني، إيه تاني؟

- السقف، غالبًا محتاجين نسحب الماية اللي فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اشتغلتِ قبل كدا؟

- آه، في شركتين، موجودين عندك في الـCV.

- وسيبتيهم ليه؟ ولا اترفدتي؟

- لا، ما ارتحتش بس.

- وأنتِ هنا لو ما ارتاحتيش حضرتك هتمشي؟

- آه، لا لا، مش كدا يعني، ما اعرفش..

- الله يخرب بيتك يا عصام! طيب، بصي، أنا ما عنديش أي اختيار غير إني أقبلك لأن ما عندناش وقت أختار حد جديد، والمفروض أبدأ شغل، والعمال جايين بكره، فيا ريت تكوني عند ثقتي دي!

- ثقة إيه بقى؟ ما حضرتك بتقول قابلني عشان مافيش وقت!

- ما تغيريش الموضوع. اتفضلي دلوقتي وبكره تيجي الساعة 9 بالدقيقة.

أغلقت خلفها الباب فصحت بتوتر:

- ما تقفليهوش، سيبيه، سيبيه عشان هعمل حاجة كدا.

بيد أن أيقنت لثوانٍ أني بداخل مكتب القبرصي بمفردي، لم يتملك مني الخوف منذ سنوات، والآن يطاردني في أحلامي، عجوز وأرملته. قضيت لحظات في شرود قبل أن يأتيني عصام، فأدار ذراعيه بفخر واعتزاز وابتسامةٍ بلهاء..

- إيه رأيك في فرح؟

- مش عارف أقول لك إيه الصراحة..

- عيب عليك، أنا مش هجيب لك أي حد..

- جايب لي واحدة من تالتة أول؟ دا منظر مهندسة! طب أقسم بالله يا عصام لو ضيعت وقتي على الفاضي لأخصم مرتبها منك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حرام عليك والله، دي شكلها طيبة وبنت حلال!

- طيبة؟! هو أنا جايب بيبي سيتر؟ اطلع بزا.. ولا أقول لك! استنى، خدني معاك.

خلال أيام من العمل، أثبتت فيها فرح جدواها وأملًا قليلًا في فائدتها، لم أعتد أبدًا على الثناء على أي موظف، ولكنها بالفعل تستحق الثناء، عبقرية، تترك دائمًا بصمتها في كل جانب. مررت بالطابق الأعلى في ممر الغرف ووجدتها.

- إيه رأي حضرتك؟ أنا حاولت بس إني ما اغيَّرش كتير في شكل البيت، الأبواب بس أنا مليت كل الفراغات اللي كانت فيها وهعمل تيست دلوقتي بالنور..

ذهبت خلف الباب، أغلقت جميع الأنوار، وسلطت الضوء على الباب من الخلف حتى يمر الضوء من أي فراغ ما زال موجودًا بالباب، وأنا أراقبها من الخارج، وبمجرد أن مرَّ الضوء تلك الحروف ظهرت أمامي، منقوشة نقشًا يدويًا في مساحةٍ صغيرة Άδης. حاولت رسم الحروف على ورقةٍ كانت في يدي بسرعة، وفرح ما زالت بالداخل تستكشف الباب لترى أي جزء مرَّ منه النور.

- تمام تمام، كدا الباب بقى زي الفل، مافيهوش أي فراغات.

- بالنسبة للحروف اللي متشخبطة في الباب دي إيه؟ ولا أنتِ شايفة إنها فن يعني؟

- حروف إيه يا أستاذ هشام؟!

- آهِه...

وكان الباب سليمًا معافى من أي جروح، لم يمر الضوء، طالبتها بإعادة تسليط الضوء مرة أخرى ولم يمر، لا وجود لما نقشته في ورقتي منذ قليل، هي رسالة فقط من صاحب البيت، ولكني الآن صاحب البيت، باستثناء ضيوفي الكرام.

- أنا عايزة أتكلم مع حضرتك في حاجة بخصوص اللي حضرتك بتقوله، أنا مش عارفةٍ هي صح ولا أنا بخرَّف..

- قولي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا بتخايل بواحدة هنا في البيت أوقات، ساعات بقول حد من العمال، وساعات بقول بيتهيألي، لغاية ما بدأت أسمع أصوات كمان جاية من تحت، من البيانو، وما كانش فيه حد في البيت وقتها غيري قبل ما أمشي امبارح. مش عارفة، بس لما حضرتك قلت دلوقتي إنك شوفت حاجة أنا قلت أحكي يمكن فعلًا فيه حاجة!

- فرح.. مافيش حاجة، دي كلها حاجات يمكن من الإرهاق مش أكتر، إحنا بنشتغل طول اليوم تقريبًا، ركزي في شغلك وبس، وما تشغليش بالك بأي حاجة بعد إذنك.

- حاضر.. تحت أمرك.

حديثها ترك بداخلي شعورًا، مزيجًا بين الطمأنينة والخوف، لست بمجنون، حسنًا، أحيانًا أُصبح مجنونًا، ولكن الآن أنا مدرك أن كل شيء يدور في البيت حقيقي دون أي تدخل من عقلي، ولكن الخوف يكمن في حقيقة الأمر، حقيقة أنني اشتريت منزلًا غير مُرحَّبٍ بي فيه.

أتمنى أن يتركني حتى أنتهي من عملي وأذهب في سلام. لست بطامعٍ في منزل يا قبرصي، أقسم لك.

صوَّرت الرموز التي ظهرت لي وأرسلتها إلى صديق خبير في اللغات، طلبت منه استكشاف تلك الرموز، ربما تكون كلمة من لغة أجنبية، القبرصي يجعلني أقوم بفكِّ الشفرات. انتظرني قدري بسيجارته المعتادة خارج المنزل، دخلت إلى السيارة دون أي مقدمات. انتبهت لصورته الصغيرة المعلقة في المرآة الأمامية للسيارة.

- أول مرة أشوف حد معلّق صورته هو، أنت غلبتني في النرجسية، فكرني أعملها لما أرجَع عربيتي..

ليُطفئ سيجارته ويضحك ويقوم في صمت.

- سيبك من الصورة بس دلوقتي، أنت أول يوم جيت فيه أنا قلت دا ما بيخافش، هيعرف يسد عادي.

- ما خفتش من سنين، لدرجة إني نسيت إحساس الخوف كان إزاي، هو جه رجّع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل حاجة.

- ماضيك صعب شكلك!

- مش أوي، بس أنا الماضي بتاعي هو الخوف، خايف من سيناريو ممكن يتكرر تاني، وخايف من حاجة أنا مش عارف هي حقيقية ولا مجرد تهيؤات.

- لا، ما تضحكش على نفسك وعليّ، أنت عارف إنه حقيقي مش كدب.. بس هو نص حقيقي...

- إزاي؟!

- يعني كل حاجة بتحصل جوا دماغك، جوا عقلك أنت، هو بيدخل جواه، لكن مش هيمسكك يضربك يعني! حاول تتجاهل مثلًا، يمكن وقتها يزهق ويلاقي إن مافيش منك فايدة!

- تفتكر؟!

- دا بقى عن تجربة.. أنت ناسي إن أنا عايش هنا من زمان ولا إيه؟

خلال يومين من العمل الشاق تتخللهما أحلام يقظة وكوابيس في المنام، رأيت فيها أني أصارع النجوم وأقتل النجم المسؤول عن برجي حتى أنتهي من قدري، ولكني وجدته يولد من جديد، أحدثَ انفجارًا أظنه كالانفجار العظيم، انفجارًا سينشِئ كونًا جديدًا سأعيش فيه بمفردي، دون عمل، دون القبرصي وشاربه الضخم وزوجته الأسكتلندية، دون ثرثرة عصام وغباء فرح بعض الأحيان، دون أي شيء، أعيش مع أنسب وأفضل شخص لي، أنا.

قررت بعد الاستيقاظ أن أذهب بعيدًا تيمنًا بالرؤية، تركت رسالة لعصام بالبحث عن مشترٍ للبيت مع اقتراب انتهاء أعمال ترميمه مرفق بها سطر أخير: «إنجز عايزين نخلص منه». تركت العاصمة بكل ما بها من صخب، أدركت أن من الأفضل لي أخذ إجازة لأول مرة من سنوات، حتى لا أخسر ما تبقَّى من بقايا عقلي. نمتلك بيتًا على أحد السواحل الشمالية، بيتًا منفردًا نافذته تطل على البحر مباشرةً، مناسب جدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقضاء بعض الوقت قبل العودة.

حضرت قهوتي، أقف عاري الصدر، أرتدي بنطالًا تصميمه مستوحى من أفلام علاء الدين، أراقب البحر وقت الغروب، الليل اقترب، ربما يبدأ بعد عشر دقائق. تذكرت الماضي وكيف كُنا نخيّم أمام المنزل في الماضي في وجود أبي، لم آتِ إلى هنا منذ وفاته هربًا من الذكريات، ولكني كنت مخطئًا، أحيانًا تصبح الذكريات ونيسًا جيدًا في العزلة، تعيد إلينا الحالة التي كنا فيها في ذلك الوقت.

أشعر الآن أني أصغر سِنًا بسنوات طويلة، أشم رائحة طعام أمي، وأشعر بالجوع كما كنت أشعر بعد ساعاتٍ طويلة من السباحة. ابتسمت للمرة الأولى منذ مدةٍ طويلة، لا شك أنه كان قرارًا صائبًا أن آتي إلى هنا، مجرد أوهام قادرة على إسعادي، ولكن الجوع لم يكن وهمًا، أنا جائع فعلًا!

استقبلت الليل في منزلي المتواضع، القمر مكتمل الليلة حتى أنه أضاء البحر بأكمله. خرجت لأجد أي شيء يُشبع جوعي، لم أنتبه في البداية، ربما لأني كنت أُدندِن بمفردي خلال خروجي من الباب، الصوت أعلى من صوت دندنتي، حتى أني لا أدرى لماذا أتذكر تلك الموسيقى وأكررها، سمعتها في المرة الأخيرة في بيت القبرصي.. (No Valsc Mclancoliquc).

ضوء القمر ينعكس على البيانو الموجود على الشاطئ وتنغرس أقدامه في الرمال، وعازفه الخفي لم أرَ وجهه حتى الآن، وينعكس أيضًا على القبرصي وزوجته. وقفا باتجاه البحر يتحركان مع نغمات البيانو يمينًا ويسارًا، ويحتضنان بعضهما..

اللعنة على من أيقظك! اللعنة على سلامك المريب الذي جعلني أعيش في خوفٍ مما ستفعله أو تُخطط له، اللعنة على زوجتك التي تزورني في أضغاث أحلامي، اللعنة على بيتك وعازفك، اللعنة على كل شيء أوصلني إلى رؤيتك، اللعنة على وجودك يا قبرصي!

قبل أن أقترب منهم شعر بوجودي والتفَّ ناحيتي، وأشار لي بالمجيء، فكرت بالهروب، ولكن الهروب إلى أين؟ أصبح داخلي، يلاحقني أينما ذهبت، أقترب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأتجاهله كما نصحني قدري. اقتربت منه، بجانبه حتى لا أكون بجانب زوجته احترامًا له، ولكني نظرت إليها بوعيد، كدت أن أشتكي إليه منها وأخبره بزيارتها لي في منتصف الليل حتى يؤدبها، ولكني لا أريد أن تحدث بينهما مشاكل بسببي. «حصل خير».

- سيبت البيت ليه؟ حد ضايقك؟

- لأ خالص، ماحدش مضايقني طبعًا، دا أنا مرتاح جدًا.

- عايز أشكرك إنك جبتني هنا للبحر، دا عندي فيه ذكريات قديمة حتى لو مؤلمة، بس بحب أفتكرها. زي ما أنت كمان عندك ذكريات هنا، مش فرحت لما افتكرتها!

- أنا ما جبتكش ولا عارف أنت عايز مني إيه؟ أنا حتى مش عارف أنا بتكلم مع إيه، سيبني أبيع البيت وأمشي..

- مش هينفع تبيع البيت يا هشام، دا بيتي!

- كان بيتك، بس أنا دلوقتي اللي اشتريته وعايش فيه!

- ما أنا برضو عايش فيه ولسه هناك، ما أقدرش أسيبه، بس أنت مهمتك واضحة.

- أنت عايز مني إيه؟ أعمل إيه عشان تخرج من دماغي؟

- مش عايز حاجة، أنا عايزك تشتغل وتصلح كل حاجة في البيت وترجعه جديد، بس، أنا جبتك البيت زي ما جبت اللي قبلك عشان كدا.

- جبتني إزاي؟!

- لا، كدا أنت بتسأل كتير. اسمع بس صوت البحر وصوت الموسيقى، اسمع وغمّض عينيك وارتاح، أنا عايزك مرتاح وترجع البيت مبسوط عشان تعرف تخلص شغلك.

حين انتهى من كلماته، كنت قد بدأت الهروب، هرولت بعيدًا وأنا ألتفت كل ثانية لأنظر إليه قبل أن يُباغتني من الخلف، لم يفعل ما يجعلني أنتظر منه أي مكروه، ولكني أتحدث إلى شبح شخصٍ فارق عالمنا من سنوات، فلِم أنتظر منه الخير؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتهت عطلتي سريعًا قبل أن تبدأ أول ليلة فيها، أو عدت إلى القاهرة، كان منتصف الليل، لم أعد إلى بيتي، بل عدت إلى بيت القبرصي، كان من الممكن أن أطلق عليه بيتي أيضًا لولاه. اقتحمت غرفة ضبع دون أي استئذان وبأدنى مستوى من الذوق، فزع ووقف أمامي، حتى أنه ألقى من يديه كوب شاي ساخن وأخذ ينفضه عن جلبابه بيديه.

- إيه يا بيه؟ إيه اللي جرا؟!

- البيت دا حكايته إيه؟!

- لا مؤاخذة، أنا مش فاهم والله.. حكاية إيه؟

- إحنا هنقعد نلعب أفلام! اخلص! أنت عايش في البيت دا من سنين، وقلت إن دخوله تقيل على قلبك، وأبوك كان هنا قبلك، فمحدش عارف حكاية البيت واللي فيه غيرك...

- والله يا باشمهندس ما أعرف حاجة، أنا بعيد عن كل الحاجات دي، أنا آخري الباب، بقف أحرس البيت عشان محدش يدخله، واليوم اللي بطلع أنضف فيه ما ببقاش طايق نفسي..

أمسكت به واصطدم ظهره بالحائط:

- ضبع، أقسم بالله هقتلك، أنا خلاص عقلي طار أقسم بالله.. هقتلك لو ما قولتليش البيت فيه إيه!

نظر إليّ مليًا في فزع ثم انحنى برأسه:

- أعرف حد ممكن يساعدنا...

- مين؟!

- واحدة عايشة هنا من سنين طويلة، وتعتبر كبيرة المنطقة دي.

- واحدة ست وكبيرة المنطقة! أنت هتشتغلني؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مش أي ست...

تركته وقررت المبيت اليوم هنا على أن أذهب غدا إلى تلك المرأة المزعومة. ظللت طوال الليل جالسًا تحت شجرة الرقع، شردت فيها لساعات، عيني معلقة على اللوحة الرخامية بجانب الباب (بيت القبرصي)، حرب أهلية بداخل عقلي بين خلاياه من التفكير، بدأ يتبين لي الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ضوء بسيط شلَط على البيت، ظهر لي ضوء يخرج من نهاية الممر في الدور الثاني، ضوء شديد، في الماضي كنت أسب كل أحمق في أفلام الرعب يرى شيئًا خارقًا للطبيعة ويذهب إليه حتى يستكشفه من فضوله، وأقسم أنني لو في مكانه لما صدر مني هذا الفعل، عليّ الآن الصيام لمدة ثلاثة أيام للتكفير عن قَسَمي.

دخلت البيت، صعدث إلى أعلى، ظهر الضوء بشكلٍ أقوى يخرج من الباب الحديدي الأسود في آخر الممر، هذا الباب الذي كان مغلقًا بإحكام، ولكن الآن بابه موارب، اقتربت منه في هدوء وحذر، فتحته فأصدر صوتًا يشبه صريخ أمٍّ على موت طفلها حتى كدت أواسيه وأهوّن عليه، وما وجدته كان يشبه بوابة زمنية أو شريط تسجيل للذكريات، ولكني أتذكر، كان في ذلك المشهد، لم يكن هناك من يلتقط لنا تسجيلًا مصورًا.

كان أبي مُلقى على سريره في المستشفى في يومه الأخير في الدنيا، شعره الذي تحول إلى لون الثلج وعينين جاحظتين من الألم، حتى بعد أن حاول إخفاء شعوره، أنا وأمي بجانبه، ممسكة بيديه بقوةٍ حتى أنه ربَّت على يديها وألقى إليها ابتسامة طمأنينة حتى تهدأ بعد أن شعر بألمٍ من قوة ضغطها على يده، أشاهد نفسي قبل سنوات طويلة، كتفت يدًا واليد الأخرى على فمي، أراقب المشهد في خوف، لم أتحدث حينها، ولم تخرج مني أي كلمة، لم أكن أدري ما يقال في تلك المواقف.

المشهد يتكرر أمامي مرة أخرى، لم أنسَه يومًا، حاولت أن أتناساه ولم أستطع. والآن أراه كشاشة سينما وليس هناك جمهور غيري، دموعي تصل إلى فَكي، تجتمع عند ذقني وتتهاوى إلى الأرض بدون توقف.

بعد انتهاء ميعاد الزيارة، حملت أمي حقيبتها وقبلته وأخذت صغيرها وخرجت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر إليّ كأنه يراني حتى أثبث أنه يراني بالفعل، أشار إليّ برأسه لأقترب منه، اقتربت أمشي وقدماي لم ترتفعا عن الأرض، أزحف حتى ارتعش كل عضو في جسدي.

- كبرت وبقيت شبهي، بس كفاية عليك الشكل يا هشام، خليك شبهي في الشكل بس، ما تقلدنيش وتحاول في حاجات أكبر منك، عايز تبقى زيي كدا؟!

- بس أنت في نظري حاجة كبيرة، أنت بس اللي من كُتر زعلك وصلت لدا، لكن أنا فخور بيك مهما كانت النتيجة، أنا حتى لو ما نجحتش هجرّب تاني، مش مشكلة...

- مش هتنجح، وهتزعل، البيت دا مش بتاعك ولا هتعرف تبيعه، وفلوسك هتبقى على الأرض، اسمع الكلام يا واد!

هزرت رأسي في رفض، وامتزج صوت بكائي بكلامي:

- أنا آسف، أنا مكمل في البيت دا.. دا بتاعي..

تغيرت ملامحه من إعياء شديد إلى غضب وثوران، ترك سريره وبدأ في الاقتراب مني، حجمه ازداد الضعفين، صوت صراخه جعلني أسقط إلى الخلف، وبدأت في الزحف على ظهري لكي أخرج من الباب حتى استطعت الوقوف والركض قبل أن يُمسك بي، وبعد أن وصلت إلى الخارج كان يحاول الوصول إليّ، وبصوتٍ عالٍ صرخ في وجهي:

- دا بيت القبرصي...

التقطني ضبع وأنا أزحف، بعد أن وضح لي أنه صعد بعدما لم يجد لي أثرًا في مكاني في الأسفل، الباب ما زال مغلقًا، ما زال يكسوه التراب، لم يتحرك، خشيت أن أخبر ضبع بأني كنت أصرخ وأهرب من أبي. أو في الحقيقة خجلت منه، ليس له أي صفة عائلية هذا الحقير حتى يتدخل بيني وبين أبي!

شعرت بشعور طفل يصرخ ويبكي بعد سقوطه وألمه، يهرول إلى أبيه يحتضنه، ينتظر منه فقط التهوين عليه، فيقوم الأخير بصفعه، كانت تلك ملامح وجهي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفزع والدموع قد تملّكا من عيني.

- النهاردا، أول ما اليوم يبدأ، تاخدني للست دي بسرعة.

بدأت الأمطار تواسيني، تتساقط برفق، يعلم الله مدى حبي لهذا المشهد، فاستقبلتها كرسالة من الله لقلبي حتى يطمئن، جلست أمام الباب أستظل بالبيت وأشرب قهوتي، حتى ظهرت بين الأمطار، اخترقتها بعدساتها الكبيرة تهرول وتهرب، اقتربت حتى تحتمي بجانبي.

- أستاذ هشام، إيه اللي جابك بدري النهاردا؟!

- أنا بايت هنا يا فرح من امبارح.

- خير؟ فيه حاجة حصلت؟

- حاجات، بس لما نشوف آخرتها.

- ممكن أعرفها؟

- هتقولي لي خيالي واسع زي ما عصام بيقول!

- لأ طبعًا، لو قلت كدا هتخصم لي أكيد فمش هقول، لأ...

- أصيلة.

سردت كل ما يدور، قصصت عليها حكاية القبرصي وحرمه، عازف البيانو ومقطوعته، زيارتها وفرشاتها، والرموز التي رأيتها على الباب خلال وجودها، شبح أبي في ليلةٍ ينقذني والأخرى يهاجمني، حكيت كصغير استغلَّ أن أحدهم يستمع إليه فيظل يحكي ويحكي حتى ينام.

- مصدقاك.. أنا شوفت الست دي كذا مرة في البيت، وكل مرة بقول إني بتخيل أو من التعب، بس ما دام إحنا الاتنين بنشوفها يبقى حقيقي، غير إن فيه حاجة تانية بتحصل...

- إيه اللي بيحصل؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طقطقت أصابعها وخلعت نظارتها وتسارع إيقاع تنفسها وبدأ صوتها في الانخفاض، ونظرت إلى السماء التي اشتد مطرها، كأنها تحفزها على البكاء.

- عايدة...

لم أقاطعها، ولم أسألها عن شيء، بدا عليها التحضير لحديث ثقيل:

- كانت مرات أبويا، اتجوزها بعد وفاة أمي، وربتنا أنا وأخويا، كانت بتكرهني أنا بس، جسمي لسه فيه علامات من ضربها وحرقها ليا، ومبررها كان إنه عقاب ليا، وكل مرة كنت بحاول أشتكي لأبويا كانت بتزود تعذيبها أكتر، كانت بتستمتع لما تشوفني بتوجع، كنت بسألها عشان أفهم كرهها ليا وما كنتش بلاقي جواب..

أدارت يديها اليسرى وأشارت إلى علامة عند الكوع:

- شايف، دي واحدة من العلامات اللي سابتها لما حرقتني بعد ما سخنت حديدة من حاجات المطبخ عشان مسكت حاجة في المطبخ وهي فيه، وقالت إنها ما تقصدش، وإني شقية، رغم إنها مسكتني وبصت لي في عيني قبل ما تعمل كدا، نظرات عينيها بحدتها لسه فاكراها، ما نسيتهاش، وتعبت سنين وماتت وحاولت أنساها، وبقيت بشغل نفسي عشان أنساها، لغاية ما جيت واشتغلت معاكم هنا، ورجعت تاني كأنها ما ماتتش، بشوفها بتمشي في الشقة عندي وبتعدي من قدام أوضتي زي زمان، وبتقف قدام الأوضة عشان تشوفني نمت ولا لسه، كانت بتاخدها حجة عشان تضربني، وشوفتها هنا في البيت، كانت في آخر الطرقة عند الباب الحديد دا وماسكة في إيديها العصاية الخشب اللي كانت بتنزل بيها على جسمي، ودخلت الباب وهي بتبص لي نفس البصة هي هي ما اتغيَّرتش وكأنها بتقولي تعالي ورايا. بقالي أيام ما بنامش، خايفة ومرعوبة، دا أنا فكرت أروح أنبش قبرها وأشوفها هي اللي اتدفنت فعلًا ولا لا، عشان أتطمن. البيت دا فيه حاجة، وكل اللي بيدخله بيحصله حاجات غريبة، ولازم نسأل ونعرف، أنا ممكن أموت لو فضلت كدا فترة كمان..

لم أعقِّب، واكتفيت بابتسامة جاهدت حتى ارتسمت لطمأنتها، ثم انتبهت إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدري الذي كان يراقبنا من داخل سيارته التي تحميه من المطر وسيجارته تتدلى من فمه الثابت، وينظر إلى فرح في حزنٍ وكأنه يسمعها ويشعر بها.

مرّت ساعات طويلة تخللها بعض الحكايات والضحكات، وما أكثر الحكايات لديّ! لم ألحظ عدم حضور أي أحد إلى العمل اليوم، وربما لأن حالة الطقس لم تكن مشجعة على المجيء. فرح لم تكن غبية كما ظننتها، كانت مجرد فتاة نقية، بركة ماء نظيفة لم تتسخ بعد، لم تحتك بالعالم لتعلم مدى قذارته، لم ترَ سوى قسوة سيدة واحدة، الساذجة لا تعلم أن ما شاهدته لم يكن إلا إعلانًا تشويقيًا للعالم.

الوقت كان غروبًا، خرج ضبع من وسط الظلام بمصباح يحمله في يده أضفى عليه رعبًا أكثر من هيئته التقليدية، الغبي، لا يعلم أننا في القرن الواحد والعشرين.

- حبيبي، فيه حاجة اسمها كشاف في التليفون، تعرفه؟

- يا بيه إحنا هنمشي وسط زرع وغيطان، عايزين نور شَديد.

قاطعته فرح:

- هو إنتم رايحين فين أصلًا؟

- مشوار كدا، المفروض إنه يعرفنا أكتر عن البيت.

- أنا جاية معاكم..

- ما ينفعش، أنا نفسي ما اعرفش إحنا رايحين فين، ويمكن نتأخر عشان ما يحصلكيش حاجة، هرجع وأحكيلك اللي حصل.

- هاجي، اللي بشوفه في البيت أكيد مش هيبقى أفظع من اللي هيحصل.

وبعد محاولات كتيرة باءت بالفشل، انتصر عناد النساء وسبقتني إلى الطريق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رقعة زراعية كبيرة، طول الزرع يقارب أطوالنا، ربما ذرة أو قصب، لا أدري، يتقدمنا ضبع بثبات وكأنه يحمل حاسة سابعة في رأسه، بوصلة تُحدد له الطريق. السماء صافية من التلوث كما كانت قبل لعنة الثورة الصناعية، ظهرت النجوم بوضوح ولمعان مبهر، وتكاثر عددهم إلى أضعاف مضاعفة، تراهنت بيني وبين فرح أن هذا الضوء اللامع كوكب الزهرة، وربما نجم الشعرى الذي بنى من أجله المصريون القدماء الأهرامات حتى يسقط عليها ضوؤه فيبارك موتاهم.

وبعد طول المسافة بدأت ترتسم السماء كلوحة ليلة النجوم لڤان جوخ، لا أظنها تحولت، بل الاضطراب بداخلي أنا، عقلي تشوّش كموجات الراديو، أصبحت أرى كل شيء مُشوشًا، سماء هائجة، الزرع يطول أكثر وأكثر، حتى أنه اقترب من ابتلاعي. ضبع وفرح لا وجود لهما، أقاوم حتى أظل يقظًا، أدركت صوتًا وحركة وسط الزرع، يقترب ناحيتي، أظن أن أحدهم وجدني، مددت يدي واقتربت تجاهه، لم يكن أحدهم، كان حيوان ضأن بري ضخم بقرنين عظيمين، التهم ذراعي، صرخت حتى انتهى مخزون صراخي، انقضّ على جسدي، قاومت بما تبقى لي من قوة، أمسكت قرناه اللذان عزم على أن يغرسهما في رأسي، وظللت أقاوم حتى سمعت صوت ضبع..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. مالك يا بيه؟!

عادت السماء مستقرة، ووقفت فرح في فزع تراقبني، وأظن لولا عدم مقدرتها على الهروب لفرّت، الزرع تقلّص، والضأن اختفى، ولكن ترك علامةً بأسنانه على يدي.

- أنتم رحتوا فين وسيبتوني؟

تكلمت فرح وهي تكتم بكاءها:

- إحنا ما سبناكش، أنت اللي مرة واحدة وقفت وما رضيتش تتحرك، ولقيناك بتجري وفضلنا نجري وراك لغاية ما لقيناك هنا مرمي في الأرض عمال ترتعش كدا.. إيه اللي حصل؟

اعتدلت ومع كل حركة أستمع إلى طقطقة عضو في جسدي بألمٍ عنيف بعد حرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير متكافئة -أنا ما عنديش قرنين زيه- ونزعت الغبار عن ملابسي وأكملت السير.

- إحنا لازم نوصل بسرعة..

لم نتوقف عن التفكير وطرح الأسئلة طوال الطريق، حتى وصلنا إلى منطقة تحتوي على مجموعة بيوت متفرقة، متهالكة وقديمة، مشهد مزعج لي، أحمل أمراضًا سيكوباتية تجاه التهالك والتصدع، وهذا الكم من التهالك يصيبني بالإعياء. مجموعة من الفلاحين يسكنون البيوت، وقت وجودنا على الأغلب غير مُرحب به، ولكن أراهم ينظرون من وراء النوافذ، سيدات انتبهوا إلى صوت خطواتنا، يختبئن خلف ستائر معتمة لا يظهر منها إلا أعينهن التي تصاحبنا أينما تحركنا، ترحيبًا بالزائرين، حتى بَرَكَ ضبع أمام باب أخضر خشبي..

- وصلنا، دا البيت.

طرق برفق ثلاث مرات، وأعاد تكرارها ثلاث مرات، ولم يجِب أحد.

- ما تخبَط عدل! عايزين ننجز..

- دي ست كبيرة، ما ينفعش نفزعها.. عيب!

وبعد انتظار طويل، انفتح الباب وظهر من ورائه عباءة سوداء، هذا هو الوصف الدقيق، بظهرها المحنيّ وطولها الذي لم يتعدَّ 150 سم، رفعت رأسها وظهرت ملامحها، عينها المفتوحة لمساحةٍ لا تتعدى المللي، ذقنها المنفرج للأمام، وشم ارتسم على جبينها وذقنها، تتبّعت خطوط تجاعيدها ففقدت الطريق، سافرت إلى القطب الشمالي وظهرت مناطق لا وجود لها على الخرائط، وصلت إلى كهف به ممر إلى جوف الأرض، أشحت بعيني بعيدًا عنها، فعدت سريعًا إلى مكاني.

- معلش يا ست سعدة، زي بعضه، صحيناكِ من النوم..

اقتربت من وجهه ودققت في ملامحه طويلًا حتى ظننت أنها تشم رائحته، حكّت أنفها، ثم بعد مجهود طويل تحدثت بلكنة أهل الجنوب:

- اتفضل يا ما جراش حاجة، ادخل..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انفردت بضبع على الباب بصوتٍ خافت خشية أن تسمعنا، ومن الحمق أن أظنها ستسمع.

- هي دي اللي هتساعدنا؟ أنت مجنون! دي مش قادرة تتكلم!

- دي أقدم واحدة في المنطقة، وكانت شغالة بتخدم زمان في مكان جنب البيت بتاعك، وأكيد شافت أو سمعت حاجة زمان تقدر تساعدك، أنا الحق عليا يعني؟!

رمقته بنظرة تردد بعد اقتناعي بمبرره، ويعز عليّ أن أعترف.

بجانب الباب أريكتان يعلوهما حصير خشن، جلسنا واتجهت «سعدة» ناحية «زير مياه» فخار، أزاحت الغطاء وأنزلت ذراعها بداخله بكوب حديدي، خشيت سقوطها بداخله، وقفت فأمسك بي ضبع فجلست.

- بتعمل إيه؟

- والله هتقع!

- طب اقعد.. اقعد الله يكرمك..

اقتربت مِنّا، أعطت ضبع كوب المياه ليشرب ويمرره لنا، أقسم بكل شيء جائز لي القسم به، لو أن آخر رشفة ماء تبقيني على قيد الحياة كانت في مكان احتساء ضبع ما شربتها.

- أخبارك إيه يا ولدي وعامل إيه؟

قاطعت وصلة الترحيب قبل بدئها:

- أنا آسف يا حاجة سعدة، أنا عارف إننا جايين في وقت مش مناسب، بس إحنا جايين عشان عايزين نستفسر منك عن حاجة مهمة..

- لا، أنتم تنوروني في أي وقت، قول عايز تقول إيه؟

- تسمعي عن بيت الناحية التانية من الزرع اسمه بيت القبرصي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- طبعًا يا ولدي سمعت عنه، كنت شغالة نواحيه لسنين..

- طب ما سمعتيش عن القبرصي دا؟ يعني شوفتيه أو اتعاملتي معاه؟

- ما أوعاش عليه الصراحة..

- مش بتقولي يا حاجة إنك اشتغلتِ هناك من زمان!

- أيوا، كنت في أرض أبويا نواحيه من وأنا بنت 8 سنين، بس عمري ما شوفته، كام حد حكى إنه شافه هو ومرته، أخويا الكبير الله يرحمه حكى لي في مرة إنه ركن حماره وفوقيه شيلة قدام البيت لغاية ما يجيب حاجة، طلع له راجل كبير وزعق فيه جامد إنه موقف الحمار قدام دخلة البيت، أخويا خاف ومشي، بس بعد ما سأل الناس قالوا له مافيش حد في البيت دلوقتي وأهله سايبينه مقفول، فيه ناس كتير سكنت البيت، دول اللي عاشرناهم، وما كانوش بيعمروا في القعدة..

- ليه ما كانوش بيطولوا في القعدة؟ كانوا بيشوفوا حاجة غريبة زي ما الناس بتحكي؟

- فيه بيوت تقيلة، يعني لا حد بيسكنها وقت طويل، ولا بترتاح لما بتدخلها، زي البيت دا، بس البيت دا غريب، عمره ما طلع عليه كلام كتير، طول عمره كان جديد وعمره ما اتبهدل ولا اتهجر عشان يخلي الناس تتكلم عنه..

- ما بيتبهدلش؟!

- آه، يعني كل ما يبان عليه علامات الزمن بيجي حد ويشتريه يوضبه، ويرجع جديد، وبعدها بمافيش يا يموت يا يسيبه سنين لغاية ما يشتريه واحد جديد ويوضبه تاني، مافيش حد سكنه لغاية دلوقتي. إحنا بنشوف السكان الجداد وقت توضيبهم وبس، وبعدها ما بنشوفهمش ولا بييجوا هنا تاني..

بعد نظرات طويلة من فرح تتنقل بيني وبين سعدة، تأكدت أنها تلعن وتسب في مخيلتها كل الظروف التي ساقتها إلى العمل لديَّ، ألقت كلمتها بحذر:

- إحنا مش أول حد؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انتبهت سعدة أخيرًا بعد كل تلك الأسئلة وتوقعت سبب الزيارة:

- ما تآخذنيش يا ولدي، أنت اشتريت البيت؟!

- آه، أنا صاحب البيت لغاية دلوقتي، الله أعلم بكرة هيحصل إيه..

- ممكن نكلم لك الشيخ عبد الخالق ييجي معاك ويقرأ عليه يحصنه..

- ما بقاش نافع بقى، تقريبًا كدا هو كان جايبنا نصلح البيت، وإحنا عملنا اللي هما عايزينه، مش إحنا خلصنا شغل برضو؟!

تهز فرح رأسها في تأكيد:

- كل الأعمال الداخلية خلصت، ما فاضلش إلا الواجهة الخارجية بس.

- هانت يعني...

وعندما أفاق ضبع من غيبوبته الطويلة من وقت مجيئنا وكأن الأمر لا يعنيه:

- يعني يا ست سعدة، ما تعرفيش أي حاجة ممكن يعملوها أو حاجة تفتكريها كدا حصلت زمان ممكن تساعدهم؟!

حكّت سعدة أنفها للمرة الخمسين فوق المئة:

- والله دا اللي أوعى عليه، ما تكملوش، إوعاك تكمل شغل ولا تدق مسمار تاني في البيت، ما دام هتتأذوا.. ربنا يحميكم ويبعد عنكم كل شر.

- شكرًا يا حاجة.. وآسفين على إزعاجك.

وحين عدنا إلى البيت لم يتكلم أحدنا بأية كلمة في الطريق كمجموعة من البُكم، كلٌ في صراع داخلي يتحدث إلى نفسه، لا تستمع إلى ما يقولون، ولكن تلاحظ تحرك شفاههم باستمرار وتفاعل وجههم المضطرب.

استقبلت رسالة صوتيه على هاتفي:

«بص يا عم هشام، الحروف اللي أنت بعتهالي دي كلمة يونانية معناها هاديس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو هيدز، وهو إله عندهم وله أساطير كتير، هاديس دا يعني ملك العالم السفلي والموتى، واخترع حيوان وحشي يكون معاه عشان يخوّف به الناس، وسماه الكراكن، وله أساطير كتير زي دي عندهم».

أوقف ضبع سيارة أجرة لفرح، استأذنني في طلب أخرى لي ولكني رفضت، ظللت أنتظر «قدري» وكأنني قد عيَّنته السائق الخاص بي، ملَّ ضبع وتركني واستكان إلى غرفته، حتى ظهر دخان سيجار قدري من بين العتمة كمدخنة قطار قديم، ابتسمت بعد أن وجدت ضالتي، قدري يفيدني، يرشدني، هو الراشد الوحيد في ذلك المكان، أصبح استقلال سيارته رحلة قصيرة مكررة أتحدث بها عمَّا بداخلي.

- إيه اللي مأخرك النهاردا كدا؟

- دا موضوع كبير، فين عربيتك؟

- لا نتمشَّى أحسن، الجو النهاردا جميل..

حكيت له عن سفري وعن ضبع، عن سعدة وما حكته، فرح وما يدور في حياتها. تلوت عليه جميع الكتب المقدسة وما أتذكره من حكم بطابور الصباح، عن ألوان غرفتي وسريري القديم، عن أشباح الصغر التي كنت أخافها، واليوم أنا أسكن وبدأت في التأقلم مع شبح وزوجته، ولا أدرى إن كان لهما أطفال. حكيت وحكيت، هنا بدأت في السعال بسبب تحجر حنجرتي من كثرة الحديث.

- أنت ما عندكش أصحاب؟

تنهدت واعتبرته وقتًا مستقطعًا، أخرجت زجاجة المياه وارتويت:

- لأ.. مش عشان أنا ممل والناس بتبعد عني عشان عيوب فيا والكلام دا. أنا اللي بهرب، بهرب من إني يكون ليا حد متعلق بيه، عشان بخاف من وجع خسارته، أهون عليا أبقى وحيد ما بحكيش لحد على إني أتعلق بحد وأخسره، يبعد أو يموت أو يسافر ويرجع حد تاني، حرمت من آخر مرة اتعلقت بحد، كان أبويا اللي بقيت أقلده في كل حاجة، حتى شغله اللي بقيت بشتغله دلوقتي، وفي لحظة مشي من غير لحظة وداع حتى، لغاية دلوقتي لسه متعلق بيه، وبعمل كل حاجة في شغلي عشانه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعشان أثبت إنه كان ممكن ينجح عادي وما اتوفقش، مش فاشل ومجنون يعني، لسه عايز أصلح صورته حتى بعدما مات، واللي القبرصي بيخوفني بيه دلوقتي زي ما بيعمل مع فرح، فبقيت كل ما ألاقي حد مهتم بأمري وبيسأل عليا أصدّه، أبطل أرد على مكالماته، لغاية ما أجبره إنه ما يكررهاش تاني، عشان ما أتوجعش على فراق حد تاني، فما بقاش عندي عزيز أصلًا.

- هتتعلق، إحنا بنتعلق من غير ما ندري، الفراق دا رغم قسوته عامل زي العيال الصغيرة بعد يوم طويل من اللعب وهو مبسوط، لازم قبل ما يطلع بيته يتخبط، يتجرح، المهم حاجة تسبب ندبة تفضل معلمة، الفراق دا الندبة، علامة كل ما يشوفها يفتكر اليوم دا والفترة دي ويرجع تاني يحس بنفس الإحساس والفرحة اللي كان حاسسها يومها.

- هو أنت ما شوفتش حاجة زي اللي إحنا بنشوفها؟! يعني مش بيظهر لك حد زي ما بيحصل معانا؟!

- كان عارف أسوأ كابوس عندي، أكتر حاجة كنت بحاول أتناساها وما صدقت أهرب منها، بس أهرب إزاي من حاجة في عقلي؟ العقل ما بيتهربش منه، أنت بتحاول تضحك عليه بس طول اليوم لغاية ما يستفرد بيك بالليل قبل ما تنام.

هززت رأسي في ترقب كأني أستدرجه إلى البوح بالأمر:

- كنت عيل بتاع ١٢ سنة كدا، وكان عندي جار اسمه سالم، اتولدنا في نفس السنة، وحياتنا كلها مع بعض طول اليوم، ليلة أبات عنده، ليله يبات عندي، المهم نفضل مع بعض، كنا في نفس المدرسة، ونخلص نرجع ونذاكر ونطلع نلعب في أي حتة في الشارع، السطوح، كان صحبي الوحيد. وإحنا بنلعب في مرة فوق سطح بيتنا، اتغاشمنا في الهزار، زقّني وضحك وزقيته بعدها من غير أي مبرر، بس بنهزر، في وسط الهزار من غير ما ألاحظ إحنا وصلنا لفين على السطح، وإحنا كنا عند شباك ما كانوش كملوا بناه لسه، فكانت الفجوة الوحيدة اللي في الحيطان، كانوا مكسلين يكملوه. كان دا المكان الوحيد اللي محرم علينا نقرب منه، وبيحذرونا منه، زقيته جامد وأنا بضحك جدًا، حط إيده وراه بس مالقاش فيه حاجة تسنده في ضهره،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بص لي لمدة أقل من الثانية نظرة رعب بيستنجد بيا وهو بيقع، جريت، نمت على الأرض، وطلعت راسي بس عشان أبص عليه، ولقيته واقع ودمه كله فاير حواليه ولسه بنفس البصة اللي بصها لي، خفت أقول لهم إني أنا اللي زقيته وأنا اللي مؤته، قولت لهم إنه راح يبص من هنالك وحذرته وما سمعش كلامي ووقع، كدبت من الخوف، كنت بفتكره دايمًا وبحلم بيه وأقوم مفزوع، وكبرت وحاولت أنسى، بس كنت بفتكر كل فترة، في ساعة صفا مع نفسي تعكنن عليا، كأن عقلي بيقول لي ما تنساش أنت كنت سبب في موت صاحبك زمان، بيصورها لي إنها خيانة لو نسيته. جيت هنا وبعد فترة بقيت أشوفه في كل مكان في البيت بيجري زي ما كنا بنجري زمان وبيضحك لي، كنت كل ما أبص من شباك من شبابيك البيت أشوفه واقع في جنينة البيت بدمه، نفس المشهد تاني، لغاية ما قفلت الشبابيك خشب عشان ما أبصش منها تاني، وفضل ملازمني مش عايز يسيبني وبيفكرني كل شوية، «أنت قتلتني ودلوقتي مش عاوز تلعب معايا». كنت ببكي وأنا مش عارف أرد أقول له إيه، أنا شوفت في البيت دا أكتر حاجة ممكن تسبب رعب وخوف لراجل، وهو ماضيه اللي ماحدش يعرفه غيره.

بثّ أفقه حيلة القبرصي لطرد كل ساكن جديد للبيت بعد أن يتخلل إلى منحنيات مُخه، يتسلل إلى ذكرياته، يبعثرها تمامًا. يجسد أمامك أسوأ كوابيسك وأكثرها ألمًا، يحول البيت إلى زنزانة ويودع معك كل ما تريد الهروب منه، يجلب الهلع إلى عقلك، ويترك باب الزنزانة مفتوحًا، فاخرج إن أردت.

- سعدة قالت لي إن كل اللي سكن البيت يا إما سابه وما سكنش فيه أو مات، أنت سبته ولسه موجود في المنطقة ليه؟

- يا ريتني أعرف أمشي وأسيبه..

وصلنا إلى الطريق، لم أعقب على كلماته، ودعته واختفى في ظلمة العودة، أحسست بالذنب طويلًا بعد إرهاق عجوز كهل للسير معي كل تلك المسافة، شعرت بأنني طفل حقير أناني.

بعد عودتي إلى المنزل، لم أسلم من عتاب أمي بعد وصلة من السباب لتغيبي تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأيام وعدم الاتصال بها، قابلتها بابتسامةٍ لزجة لم تعتد عليها، استندت إلى كتفها برفق:

- أنا تعبان وعايز أنام جدًا، معلش هصحى وهبقى أحايلك.

غصت في أحلامي مجددًا بعد انقطاعٍ طويل.

وجدتني في منتصف مدخل بيت القبرصي، أبني سفينتي الخشبية كنبيّ الله نوح، أحمل الألواح وأدق بمطرقتي، يمر القبرصي وزوجته يضحكان ويسخران مني، بصَق على الأرض أمامه ومر، يسلط عليّ ضأنه الوحشي ليرهبني، أتجاهلهما وأكمل، حتى وإن كنت أحمل بعض الخوف، أتضرع وأبكي، أرفع رأسي مناجيًا الله أن ينجيني. حملت في سفينتي كل من أعرفهم، حتى ضبع لم أتركه رغم رائحته الكريهة، لم يكترث القبرصي، اكتفى فقط بالإنصات مع حبيبته إلى نغمات البيانو، ينظر إليّ متحديًا، يدور ويدور حول سفينتي، ثم توقف بعد أن استمعنا إلى خرير ماء يسير في جوانب البيت، ظل يطارد الصوت بعينيه، حتى انفجر الماء من كل مكان.

انتفضت مستيقظًا مع أذان الفجر، تمنيت لو أنها تكون رسالة من الخالق بنجاتي، وليست مجرد أضغاث أحلام.

صباح باهت وكأن الشمس تأبى الابتسام، لم أحتسِ قهوتي، لم أسقِ الزهور، ولم أراقب المارة، فقط ذهبت إلى مكتبي. قابلني عصام بكسرة عنق أعلمها جيدًا، هذا المشهد أراه في كل إخفاق له..

- مالك بوشك دا على الصبح؟

- عندي خبرين مش كويسين..

- يا سلام! اتنين مرة واحدة! اتفضل..

- أنا لغاية دلوقتي مش عارف ألاقي بيعة للبيت، عملت كل حاجة، سرَّحت كل السماسرة اللي شغالين معايا، كلمت عملاء عندي من زمان شايف إن معاهم يدفعوا، عملت كل حاجة ممكن تتعمل، وكل مرة تحصل حاجة توقف الموضوع وماحدش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عايز يشتريه.

- أنت خِبت يا عصام ولا إيه؟ أومال إيه بس الشويتين اللي بتعملهم علينا كل شوية، وفي الآخر مش عارف تبيع حتة بيت! فالح بس تبيعهولي أنا في الأول وتدبسني فيه، هو مافيش زبون غيري؟

- هشام، أنا شغال معاك بقالي سنين، بعت واشتريت وعملت كل حاجة وعمر ما فيه حاجة وقفت قصادي، وأنت عارف شغلي كويس، وإلا ما كنتش فضلت معاك كل السنين دي، بس مش عارف ليه البيت محجّر للدرجة دي!

- شيء ما يخصنيش، تتصرف وتخلصني منه في أقرب وقت، قلّل السعر اللي طالبينه، اعمل أي حاجة.

- حاضر..

- وتاني مصيبة.. اتفضل!

- فيه واحد من العمال اللي كانوا شغالين معانا مات من يومين..

- الله يرحمه، وبعدين يعني؟

- لأ ما أنا جايلك في الكلام، هو اتقتل ما ماتش موتة عادية..

- وإحنا مالنا؟ هو أنت اللي قتلته؟!

- لقوه في بيته مرمي على الأرض في بركة دم، وفيه حاجه مغروسة في عينيه الاتنين، والطب الشرعي قال إن اللي قتله حط في عينيه حاجة زي قرنين حيوان..

- قرنين!

بعد سماعه لم أستغرق وقتًا حتى أستنتج أنه حيوان ضأن القبرصي، اعتدلت واقتربت منه ووضعت يدي على ركبته وبدأت في استجوابه:

- الراجل دا عمل إيه في البيت قبل ما يموت؟ يعني فيه أي حاجة غريبة حصلت؟ حاجة قالها لك أو قالها للي شغالين معاه؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آخر موقف كنت بتخانق معاه عشان كسر درجة من السلالم الخشب وهو نازل بمعدات من الدور اللي فوق..

- قتله عشان سلمة؟!

- مين اللي قتله؟ هشام أنت لما كنت بتحكي لي أي حاجة عن البيت غريبة كنت بتريق وما بصدقش، بس أنا دلوقتي شبه متأكد إن فيه حاجة..

- فيه القبرصي.. صاحب البيت الحقيقي، اللي مش عايزنا نبيع البيت وعايزنا نسيبه كدا عشان ما يتبهدلش ويحافظ عليه، إحنا كنا لعبة، جينا هنا عشان نرجع البيت زي ما كان ونصلحه بس، ومش مسموح لينا نعمل أكتر من كدا، وإحنا مش أول حد يحصل له كدا، ولا هنبقى آخر حد، والراجل الغلبان اللي مات دا مات عشان كسر سلمة بس في البيت، والحيوان اللي غرز قرنين في عينيه دا الحيوان اللي فيه تمثال براسه قدام باب البيت، أنا شوفته في الزرع وكان عايز يعمل فيا نفس اللي حصل للراجل دا. أنا تعبت ومش عارف أنام ولا عقلي يرتاح لحظة، دا بيطفشنا واحد واحد، أنا بأبويا وفرح بمرات أبوها اللي بتظهر لها في كل حتة، حتى قدري الراجل الكبير بيطلع له صاحبه عشان يخوفه، وساب البيت بسببه...

- وابني..

- كمان؟!

- أنا ما حكيتش لحد ولا لمراتي عشان ما أزودش عليها الوجع، أنا ما صدقت إنها بقت أحسن، بس أنا ما بقيتش أحسن ولا عارف أتحسن. أنا اليومين دول بقيت أسوأ من اليوم اللي مات فيه، كنت بسمعه بينادي عليا في البيت وأجري ورا الصوت وما ألاقيهوش. من يومين شوفت نور أوضته منور من تحت عقب بابها، وشوفت خياله بيجري وإحنا أصلًا ماحدش فينا دخلها من يومها، بس دخلتها المرة دي ورجعت شوفتها تاني، كان نفسي ألاقيه عشان أغطيه زي ما كنت بعمل، بس ما كانش موجود. وفي بيت القبرصي كان أسوأ، شوفته، كنت فوق وبصيت من الشباك وشوفته بيلعب على المرجيحة اللي في الشجرة، زعقت له جامد عشان ممكن يقع

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعمال اتلموا على صوتي وافتكروا فيه مشكلة، وهو اختفى، وسمعت صوت جريه وضحكته في الطرقة، أنا شوفته وسمعت صوته في كل زاوية في بيت القبرصي، أنا عمري ما عيطت تقريبًا، مراتي كانت بتقول عليا جبلة، بس أنا اليومين دول عيطت عياط يعوض كل العياط اللي ما عيطتوش طول حياتي.

- أكيد كل دا له حل، مستحيل بعد كل الفلوس والتعب دا يخرجنا كدا منه وبالطريقة دي، أنا مش هخسر كل دا..

- أنا خايف بس يكون إحنا اللي علينا الدور!

- خلينا نشوف حد يفكر معانا بس، يمكن نقدر نوصل لحل..

وصلنا إلى بيت القبرصي بعد وقتٍ قصير، وقد سبقتنا فرح بمجيئها، لم تفعل أي شيء إلا التدقيق في البيت وكأن البيت قام بسحرها، عيناها ثابتتان على نقطة تركيز واحدة، نافذة غرفة القبرصي في الدور الثاني، وضعت يدي على كتفها برفق حتى تنتبه.

- شايفهم؟!

- أنا مش شايف، بس أكيد أنتِ شايفة.. عارف.

- واقفين معاها في الشباك وبيبصوا لي من الصبح عشان أخاف أطلع.

- ما تخافيش، هنلاقي حل، وكل دا هيخلص.

- ما دام هو عايزنا نصلح البيت ويمشينا، ما نكسره، نرجعه تاني أسوأ من الأول، وقتها هيدور على غيرنا!

- ما ينفعش، ممكن نتأذي..

أخفيت عنها خبر وفاة ذلك العامل بتلك الطريقة، اكتفيت فقط بتحذيرها، حتى تتجنب تلك الفكرة خوفًا عليها، وللمرة الأولى منذ سنوات يتملكني الخوف على سلامة أحد غيري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صرخت على ضبع الذي لم يكن له أي أثر بعد حضورنا جميعًا، أتى إليّ مسرعًا وفي يده كوب الشاي:

- إيه يا باشا؟ لا مؤاخذة ما أخدتش بالي إنك جيت، أعملك شاي أو قهوة؟

- أنت يا ابني البرود اللي فيك دا جايبه منين؟ أنت مين سماك ضبع؟

- أبويا يا بيه..

- كان عنده نظرة والله، ما كانش القبرصي قتلك أنت وريحني منك!

ارتشف رشفةً من الشاي مع ضحكةٍ ظهرت معها أسنانه السوداء:

- ماحدش بيموت ناقص عمر..

- يا رب عمرك يكون اكتمل خلاص، روح شوف لي قدري فين.

- قدري مين يا بيه؟!

- الراجل الكبير اللي بيبقى واقف قدام البيت على طول لابس طاقية كدا ومعاه عربية چيب بابها خشب، اللي بطلع معاه على الطريق كل مرة، إيه ما شوفتهوش قبل كدا؟!

استغرق ضبع بضع ثوانٍ للاستيعاب:

- تعالى معايا دقيقة..

خرجنا إلى الطريق، وتبعته كالخراف لا أعلم إلى أين يجرّني، ولكن عليّ اتباعه، اقتربنا من سيارة مغطاة بغطاء قديم، طلب مني مساعدته في رفع الغطاء، نزعناه عنها وانتشر الغبار في كل مكان وظهر من بينه سيارة «قدري». متهالكة، قديمة، يكسوها التراب، زجاجها مكسور ومصابيحها منزوعة أو مسروقة، إطاراتها فارغة ومحتضنة الأرض حتى أصبحت جزءًا منها.

- هي دي؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أكيد لأ.. أنا بروّح معاه كل يوم!

قبل بدء العاصفة واتهام ضبع بالجنون والغباء، وقبل أن أنهال عليه بالسباب، التفتُّ إلى صورة قدري المعلقة داخل السيارة، صورة بنفس ملامحه وعلامات الشيخوخة، أعرفها جيدًا، اقتربت منها وأزلت عنها التراب، وللمرة الأولى نظرت في الجانب الآخر، التاريخ «7 نوفمبر 1992»، كنت أتقبل اقتراح عقلي بأنه قام بمجرد حادثة لا غير، كنت أتقبله بدون أي مراعاة لمنطق، فقط لأني لا أريد تصديق المقترح الآخر.

- هو اللي كان بيوصلني كل يوم وبالعربية دي!

- يا بيه أنا كل يوم كنت بطلع أجيبلك عربية أجرة تطلعك على الطريق، مافيش غير كام مرة اللي أخدتها مشي..

- إزاي؟ أنا كنت امبارح معاه، العربية دي مركونة هنا من إمتى؟ وتعرف قدري منين؟!

- عم قدري كان صاحب البيت زمان، الوحيد اللي عاش فيه فترة، يعتبر كبيره مش زي غيره، مات من ١٥ سنة هنا في البيت، رمى نفسه من فوق السطح، كنت ساعتها عندي حوالي ١٠ سنين، طلع فوق السطح ولقيته واقف ما بيتحركش، خفت وعرّفت أبويا، فضل ينادي عليه، ولما لقاه ساكت ما بيردش طلع بسرعة وراه يشوف فيه إيه، وقتها قدري رمى نفسه وأنا الوحيد اللي شوفته وهو سايح في دمه قصاد الشجرة.

- أنت كداب.. أنت معاه.. أنت مع القبرصي.. أنت كمان عايز تجنني...

- أنا مش مع حد، أنا ماليش دعوة لا بيك ولا بالبيت، البيت دا وصحابه ملعونين، أنا هنا باكل عيش وبس، أبويا وصّاني لا ليك دعوة بالبيت ولا باللي بيحصل فيه، عشان كدا هو الوحيد اللي نجا ومات على سريره، أنا عايز أعيش بس آكل وأشرب وأنام وأنا راضي، ماليش دعوة بأي حاجة بتحصل تاني جوا البيت.

جلست على التراب بجانب السيارة، واستندت إليها أرتب أفكاري، الجميع يتكلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصخب ولم ألتفت إلى أي كلمة، كل ما يدور في عقلي حقيقة وجود قدري، كل ليلة كنت أستقل سيارة خرجت عن الخدمة من سنوات، يقودها عجوز لقيَ حتفه منتحرًا منذ خمسة عشر عامًا..

اقتربت مني فرح، ربتت على كتفي ولم تنطق بأي كلمة، فقط اكتفت بنظرة شفقة خير من ألف كلمة.

- أنا بس كنت محتاجه، كنت ما صدقت لقيت حد يملا الخانة دي في حياتي. أنا كنت جايله يقول لي أعمل إيه، أنا بقالي فترة مالقتش حد يقولي أعمل إيه.. أنا دايمًا صاحب القرار، دايمًا، وأنا ما بحبش دا.

بعد وصلة من الشجار بين عصام وضبع انتهت باقتراب ضبع مني، وبدأ في الحديث وهو يلهث من كثرة الكلام.

- الست سعدة النهاردا بعتت لي إنها عايزاك..

- عايزاني في إيه؟!

- ما اعرفش، دا اللي قالته لي، بس أكدت عليا إنه يبقى بسرعة.

حل الظلام، سرنا جميعًا وسط الأرض الزراعية، يتقدمنا ضبع بمصباحه الخافت، اخترقت مسامعي الطبول والصراخ، وثغاء ضأن القبرصي، قابلت ألف وحش ومئتين من الكيانات الأخرى، التفَّت حولي جميع النباتات وأمسكت بقدمي، ألقت السماء بنيازك في طريقي، وأخرجت الأرض عصارتها، قابلت أبي وأمي وقدري، وكل مَن له صلة بي يرجوني أن أتوقف، أقسموا بكل ما يجوز ولا يجوز القسم به لكي أتجه إليهم، تحولوا إلى أشباح سقطت رؤوسهم وتلوَّت أعضاؤهم، حدث كل ما يمكن حدوثه، ولم أكترث، كنت أسير بخطوات ثابتة، شاحبًا ذابل الجسد، بظهرٍ منحنٍ، ربما تشفق عليّ سعدة عندما ترى مدى انحنائه وتعطيني نصائح حتى أصبح على أقل تقدير مثلها، حول عيني سواد كافانتابلاك، اقتربت من أن أمتص الضوء به، لم ألتفت لكل ما أراه وما يخيله لي القبرصي، وكأن بعد علمي بحقيقة عدم وجود قدري فقدت آخر جزء في عقلي مسؤول عن الواقع، أصبحت أتعامل مع كل شيء على أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجرد خدعة، ربما أنا الآن في مكتبي أشاهد التلفاز، ربما.

وصلنا إلى بيت سعدة، فتح لنا شاب صغير لم يكن موجودًا في المرة السابقة، أغلب الظن ابن ابن ابن حفيدها، لا أعلم نسل سعدة إلى أي ابن وصل.

- اتفضل يا باشا، جدتي مستنياك جوا..

سعدة كانت ملقاة على سريرٍ صغير بعباءتها السوداء، وتلف حول خصرها حزامًا مطاطيًا وقد أخذت وضع الجنين، كادت أن تعتدل ولكننا أصررنا عليها، أشم رائحة الموت، اعتدت عليها وأعرفها جيدًا، سعدة لم يتبقَّ لها الكثير.

بعد عناء طويل استطاعت أن تفتح فكّها وتبدأ في الحديث بمخارج حروف مشوهة.

- ما تزعلش مني يا ولدي، آني جيبتكم الطريق دا كله.

- ولا يهمك يا حاجة، وألف سلامة عليكِ، ربنا يقومك بالسلامة.

- لا سلامة إيه! هو معادي خلاص، أنا مش هعيش ليوم الدين.

- لأ ما تقوليش كدا بس! ربنا يديكِ طولة العمر، إن شا لله ضبع وأنتِ لأ..

- ليه بس كدا؟ ربنا يحميكم لشبابكم. أنا فيه حاجة ما قولتهالكش النوبة اللي فاتت، كنت خايفة، بس أنت شكلك ابن حلال وزي عيال عيالي وقلبي انشرحلك، وما أرضاش إنك تتأذي.

- خير؟!

- أي حد بيتكلم عن أي حاجة يعرفها عن البيت لأصحاب البيت الجداد بيموت موتة غريبة يا ابني، وأنا بس كنت عايزة أموت موتة ربنا على سريري، وأنا دلوقتي هنولها، عشان كدا هقول لك اللي خبراه. القبرصي في البيت يا ولدي، مدفون جواه ما سابهوش، الراجل دا بقاله سنين طويلة أوي أوي ماحدش عارفها، لو خرجت جتته من البيت كل حاجة هتبقى طبيعية، ناس كتير من اللي سكنوه حاولوا وما عرفوش وماتوا، فخد بالك لو ما طلعتهوش من مطرحه أنت نفسك هتموت، أنت وكل اللي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

اشتغلوا معاك.

تذكرت كلمات القبرصي في أول مقابلة بيني وبينه، «تخيل عشت هنا سنين وعمري ما فكرت أسيبه ولا هسيبه، أنا لسه هنا بكل حاجة فيا». القبرصي بجسده ما زال في البيت!

قامت سعدة بمناداة حفيدها كي يجلب لها صحنًا من الفخار قريبًا منها:

- كُل قرع العسل دا من يدي.. مش هتاكل زيه في أي مطرح.

- بالهنا والشفا، ما تاكليش منه بقى لتتعبي.

- وأموت وأنا نفسي رايحة له؟ لو هموت يا ولدي أموت وأنا فرحانة.

- صح.. عندك حق.

خرجنا من بيت سعدة نتبادل النظرات حتى يبادر أي منا بالحديث، بدأ عصام على مضض:

- أنت سمعت بنفسك، حتى لو حاولنا ودوَّرنا وما خرَّجناهوش هنموت، طب ليه بقى؟ يعني كل اللي سكنوا البيت ما قدروش عليه وإحنا يعني اللي هنقدر؟!

- وأعيش أنا بالقبرصي في عقلي، وأنت تفضل أنت ومراتك تشوف ابنك، وفرح تزورها كل ليلة مرات أبوها، وقدري اللي انتحر من كتر اللي شافه وبيحاول يساعدني إن مصيرنا ما يبقاش زيه، حتى وهو ميت بيبعت لنا رسايل؟ أصل لو فاكر إنه هيسيبنا تبقى غبي.

اقتربت فرح وهمست بصوتٍ مسموع:

- أنا لو هموت مش عايزة أموت بسبب اللي بشوفه، لو هموت أموت وأنا فرحانة وبحاول أخلص من اللي بشوفه، زي ما الست اللي جوا دي ما قالت.

قاطعنا صوت نواح يخرج من بيت، في لحظات ازدحم بيت سعدة بعدد لا يحصى من الجيران، اقتربنا ووجدناها كما هي، يدها منغمسة في صحن القرع وزينت حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسامتها بواقي القرع كالأطفال.

لم يطعنها وحش القبرصي، ولم تنتحر بسبب هواجسها، فارقت العالم بعد أن اعترفت بسر القبرصي ولم تخشه، صعدت إلى السماء بعد أن شبعت من حلواها المفضلة، حضرنا جميعًا مراسم دفن وعزاء سعدة كأقل تقدير لروحها النقية، كدت أبكي على فراقها بعد مقابلتها لمرتين فقط، ولكنها تركت أثرًا طيبًا كالذي تركه قدري.

وفي وسط العزاء، خطر في بالي شيء، فسحبت عصام من يده وجلبت ضبع عن مائدة الطعام، ولوحت لفرح بالحضور. حضروا جميعًا، فهمست فيهم بصوتٍ خافت لا يخترق مكبرات الصوت في العزاء:

- الباب الأسود الحديد.. اللي في الدور التاني..

قاطعني عصام بحماس:

- آه، ممكن تكون جثته في الأوضة دي، صح؟

- إيه النباهة دي؟ أنا مش مصدق نفسي بجد، جبتها إزاي دي؟ أومال إحنا بنتنيل ندور على شنطة جلد؟ ما إحنا بندور على جثته!

فعقَّبت فرح على الحديث:

- بس دي هفتحها إزاي؟ إحنا من ساعة ما بدأنا شغل وإحنا مش لاقيين ليها مفتاح ولا عارفين نكسر قفلها حتى، قديم جدًا.

- ما أعرفش.. هنتصرف بقى، نفكر، ندور، المهم أكيد ليها حل، هو أكيد ورا الباب دا، كلنا شوفناه أوقات مفتوح وشوفنا عنده أي حاجة كان بيخوفنا بيها، دا العامل المشترك بين كل اللي بيحصل، هيوصلنا أكيد لحاجة.

اقتربت من ضبع حينما تذكرت شيئًا:

- أنت مش قايل لي في أول يوم جينا فيه إنك هتكلم أحمد! دا اللي كان صاحب البيت علشان تاخد منه مفتاح الباب دا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نسيت والله..

- نسيت! نسيت!

استطاع عصام الإمساك بي قبل تهشيم جمجته..

- تكلمه وتطلب منه ميعاد وتبلغه إننا عايزين نقابله عشان حاجة ضرورية، وما دام كان صاحب البيت أكيد يعرف عنه حاجة. وابقى انسى عشان المرة الجاية هقتلك يا ضبع.. وهوذي نفسي في داهية بسببك!

- يا بيه، صبرك عليا، أنا هفتكر إيه ولا إيه! حاضر هكلمه..

في اليوم التالي، تقابلنا أنا وعصام أسفل بيت أحمد في العاشرة صباحًا احترامًا.

- هو عشان مهندس يصحّيني ٨ الصبح؟

- كويس إننا عرفنا نقابله..

- وفرح فين؟ ما جاتش ليه لغاية دلوقتي؟

- عندها ميعاد عند دكتور الأسنان، فمش هتعرف تيجي.

- دكتور أسنان؟ طبعًا.. أومال هتموت وهي ضرسها واجعها يعني؟ ما يصحش أكيد.. الصبر يا رب!

استقبلنا أحمد بملابس كلاسيكية وهيئة مهندمة لا تليق بالتوقيت الحالي إلا في حالة نومه بها بالتأكيد، ملامح جامدة، ابتسم بنصف فم ورحّب بنا ترحيبًا رسميًا للغاية. استأذننا للذهاب لتحضير قهوة لنا بعد إلحاحٍ شديد، حتى ظننت أنه سيدس لنا السم بها، تفحصنا أنا وعصام المنزل بأعيننا، تماثيل، أنتيكات، تحف، وهمست بصوتٍ غير مسموع:

- إيه البيت دا؟ إزاي كل حاجة في مكانها كدا؟ دا مستفز.

وقفت سريعًا، اقتربت بحذر حتى أتأكد مما أراه، برواز صغير فوق مدفئة عتيقة به صورة لرجلٍ خمسيني يجلس أمام بيانو، أعرفه جيدًا وأعرف تلك اللوحة خلف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيانو لمَن تكون، أمسكت بالبرواز ودخل علينا أحمد بفناجين القهوة، وضعها واقترب مني بهدوئه وصوته الجاف.

- دي صورة أبويا مع البيانو بتاعه في البيت القديم، كان متعلق بالبيت دا جدًا.

- وبيعته ليه ما دام كان أبوك متعلّق بيه؟ وسيبت البيانو ليه هناك؟

- الفلوس يا أستاذ هشام..

- أنت بايع البيت بأقل من نص سعره، فلوس إيه؟

- أظن دا شيء يخصني، أبيع البيت بالسعر اللي أنا عايزه، وأنت اشتريته، إيه المطلوب؟

- والدك لسه موجود في البيت، أنا بشوفه وبيعزف كمان على البيانو دا للقبرصي ومراته، أنا بشوفهم. والدك روحه مش مرتاحة أكيد، البيت دا فيه لعنة، كل واحد بيشتريه بيتعذب ويا بيموت منتحر وبتفضل روحه في البيت يا بيبيعه ويهرب من اللي بيشوفه، أنا عارف إن أكيد أنت اتعرضت لحاجة ما دام بعته بالسعر دا، عشان كدا أنت لسه عايش، بس أنا مش عارف أبيعه ومش هينفع أنا وكل اللي معايا نموت، إحنا محبوسين.

- أنا آسف، مش هعرف أساعدك بحاجة..

- طيب، أنا عارف، ممكن المفتاح بتاع الباب الحديد اللي في الدور التاني؟ يمكن نلاقي فيه حاجة تساعدنا!

- حتى دا مش معايا، أنا آسف بس أنا لازم أكون في الشغل دلوقتي.

بعد طرده لنا بطريقة غير مباشرة، وقبل اتجاهنا إلى الباب، وجدت بجانب الصورة (نوتة بيانو) محفور على غلافها (Valse Melancolique) أمسكت بها وضعتها في يديه.

- على فكرة، هو ما بيلعبش غيرها على البيانو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يعقّب، وخرجنا من بيته وقد أغلق الباب بعنف قبل أن نستمع إلى صوت تحطيم وتكسير داخل منزله، نظرت إلى عصام في تأنيب:

- شوفت عينيك عملت إيه؟ أهو كسر كل حاجة جوّا، قول ما شاء الله بعد كدا..

- أنت ليك نفس تهزر؟

- لا، أهزر إزاي بس! أنا هروح لدكتور الدايت النهارده عشان مش هموت أنا وجنابي تخنانة كدا.

- طيب هنعمل إيه؟

- هنروح بقى نحاول نعمل أي حاجة في الباب دا..

أمرت ضبع بجلب كل ما يمكن استخدامه في فتح الباب، من مطرقة إلى فأس وأجنة، وكل ما يمكن استخدامه، وبدأنا في محاولة تهشيم الباب بكل قوانا ولم تفلح أي منها، كل مِنا قد أخذ فرصته في عرض قواه وأفكاره، ولكن كل ذلك بدون جدوى وبدون أي خرق في الباب، كان كالأبواب السحرية، عليه قفل على شكل رأس ضأن كالمتوقع تمامًا من القبرصي، أفرغنا كل طاقتنا في محاولات كسر القفل أو فتحه بالقوة، حتى سمعنا خطوات نسائية تصعد الدرج، انتبهنا جميعًا لنجد فرح، في الفترة الأخيرة أصبحت أرى فرح كأنثى، قبل ذلك كانت بالنسبة لي بعدساتها وحقيبتها طالبة في المرحلة الثانوية لا أكثر، نزعت عدساتها وفقدت حقيبتها وأزالت ربطة شعرها، ربما لأنها أنهت عملها وأصبحت الآن بهيئتها الطبيعية وشريكة في كارثة تحدث لنا جميعًا، على كل حال، ورغم صعوبة نطقها فهي جميلة.

- الهوليوود اسمايل هتاكل منك حتة..

- أنا آسفة، بس كان لازم أروح للدكتور، أسناني كانت متبهدلة.

- حقك طبعًا..

- عملتوا إيه مع الراجل دا؟

- مافيش، روحنا له أنا وعصام وقال لنا ماعهوش مفاتيح، وطردنا بشياكة كدا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي أثناء الحديث، امتلأ البيت بصوت ضغط أحد مفاتيح البيانو، صوت قذف في قلوبنا الرعب، نظرنا إلى بعضنا البعض، كلٌ مِنا رجع خطوتين إلى الخلف حتى أصبح ملاصقًا للحائط، ولو كان في استطاعتنا الدخول إلى الحائط لدخلنا. لم يجرؤ أحدنا على الاقتراب والنظر إلى البيانو من الأعلى.

في تلك اللحظة أُقسم أن جميعنا استحضر في عقله كل مخاوفه التي يخشى رؤيتها، حتى سمعنا ضبع يصيح بصوتٍ عالٍ.

- نوّرت يا سعادة البيه..

ضبع انضم لصالح القبرصي؟ اقتربت من سور الدرج بحذر لأرى أحمد أمام بيانو والده يتفقده.

- دا أحمد يا جماعة، أنتم خايفين من إيه؟ مش عيب عليكم!

نزلنا جميعًا إلى مدخل البيت وقابلته بوجهٍ عابس ردًا على طرده لنا، لم نتفوّه بأي كلمة، وانتظرنا المبادرة منه.

- أنا آسف على طريقتي، أنا بس كنت ما صدّقت خلصت من موضوع البيت دا، ومش عايز أرجع له ولا أفتكره تاني.

مسح الغبار عن البيانو بيده كأنه يواسيه:

- البيانو دا بتاع أبويا..

- وما أخدتهوش ليه قبل ما تبيع البيت؟

- أخدته فعلًا وكان عندي في البيت، وخصوصًا إنه مات عليه.

- مات عليه؟!

- أنت مش غريب بقى وعارف كل حاجة، هو ما ماتش، هو انتحر، قصه طويلة.

- قول قول، أنا ما بقتش أستغرب خلاص..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قبل ما يموت حكى لي إنه وهو صغير، شاب يعني، كان بيحب المزيكا وبيتعلم بيانو، وكان بيحب واحدة بتشاركه نفس الشغف دا، وبيلعبوا بيانو مع بعض، حب الطفولة يعني وفضل سنين، وفضل حب طفولة لأن على ما كبروا وبقوا جاهزين ياخدوا خطوة ويتجوزوا هي ماتت، كان دايمًا طول حياته بيعزف على البيانو النوتة اللي شوفتها عندي في البيت لغاية ما زهقنا منها، بس حكى لي إنه بعد ما جه هنا بقى يشوفها وجاب البيانو بتاعه وبقى بيلعب عليه النوتة اللي كانوا بيحبوها، أنا قلت إن بحكم السن وراجل كبير أكيد بيتخيل، وما حطتش في دماغي الصراحة، بس في آخر أيامه كان بيقول لي إنه خايف، وإنها اتغيرت معاه، ما بقتش تظهر له زي الأول، قلقت شوية وطلبت منه يسيب البيت، ما رضيش، وفي الآخر دخلنا عليه، لقيناه قاعد على كرسي البيانو وميّت عليه بعد ما شرب سم، انتحر وهو بيعزف لها. بعد ما أخدت البيانو معايا البيت بقى يزورني كل يوم في الأحلام يزعق لي ويتخانق معايا ويطلب مني أرجعه هنا، وبعد تكرار الموضوع كتير، رجعته هنا تاني وبطّل يزورني.

- وإيه اللي خلّاك تبيع البيت؟

- بعد سنين، الموضوع ما بقاش أحلام، بقيت أشوفه في كل ركن في حياتي ويطلب مني أبيع البيت، وأنا اتشلّيت، ما بقتش عارف أعمل أي حاجة في حياتي، لا شغل ولا نوم، ولا عارف أقعد مع نفسي حتى، بقيت بخاف من إني أشوف أبويا، تخيل؟!

- أنا أكتر واحد متخيل اللي بتقوله..

- عرضته للبيع بسعر عالي يناسبه، وما اتباعش، وكل يوم الموضوع بقى بيزيد عن اليوم اللي قبله، وبقيت بشوفه أكتر من نفسي في المراية، وفضلت أقلل وأقلل في السعر لغاية ما جيت أنت اشتريته، ومن يومها صِلتي انقطعت بالبيت دا، وما بقتش أشوفه، بس لما جيت لي حسيت فعلًا إني مقصر، إن فعلًا ممكن روح أبويا تكون بتتعذب هنا، ولما حكيت لي اللي بيحصل هنا لناس كتير عرفت إنه ما انتحرش بمزاجه، الموضوع كان أقوى منه، خصوصًا إني فكرت في كدا لما كان بيظهر لي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشان أبيع البيت.

- القبرصي مدفون هنا في البيت، وإحنا ما نعرفش مكانه فين، ولو طلعناه أو عرفنا كل دا هيخلص، إحنا شاكّين إن ممكن نلاقي حاجة في الأوضة اللي فوق اللي بابها حديد دي ومش عايز يتفتح، وماحدش معاه المفتاح، حاول تفتكر كدا يمكن والدك كان معاه المفتاح أو إداهولك أو مثلًا لقيت مفتاح غريب في حاجاته بعد ما مات؟!

- أنا مش فاكر خالص إنه إداني أي مفاتيح أو شوفت مفتاح غريب خالص، بس لو المفتاح دا مهم أكيد هيبقى مستخبي في أي حاجة هنا في البيت، أو في حاجة من حاجات صحاب البيت مثلًا.

- حاجة من حاجات صحاب البيت، الفرشاة!

تركتهم جميعًا بدون أي تعقيب، ذهبت إلى منزلي وأنا أحاول تذكر مكان فرشاة شعر زوجة القبرصي بعد أن جلبتها لي في تلك الليلة، أبعثر في كل مكان، لم يعد أي شيء في مكانه الطبيعي، حتى وجدتها، أتفحص كل شيء بها حتى كدت أحصي عدد الشعيرات، اهتزت فسمعت صوتًا بداخلها، صوتًا بسيطًا، ولكن ما زال باستطاعتي سماعه والشعور باهتزازه، جلبت مطرقة وهشّمت مقبض الفرشاة وقد وجدت بداخلها المفتاح، مفتاح غرفة القبرصي السرية، الليلة سينتهي كل شيء.

دخلت أمي في وسط كل تلك الفوضى، وقد وجدتني أجلس على ركبتي، أنظر إلى المفتاح نظرة انتصار عظيم.

- أبوك تعبان وعايزك جوًا في أوضته.

قالتها وذهبت، شعرت بذلك الشعور الذي لا يمكنك وصفه بالكلمات، لكنك تحاول دون جدوى إيصاله، صعق قلبي، شعرت بصقيع في أناملي وجميع أطرافي، تملكت جسدي القشعريرة، استجمعت كل قوتي للوقوف، أخذت خطوات سريعة في اتجاه الباب للهروب، ولكني مررت بغرفته، وبعد كل محاولاتي في إثناء عيني عن النظر في اتجاهها، ولكني نظرت ووجدته ملقى على سريره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إيه؟ مش عايز تشوفني تاني يا هاشوم؟

كان ذلك بعد وصولي إلى باب المنزل وعلى وشك الخروج، أخذت خطوة إلى الخارج.

- طيب حتى سلم عليا!

لم أعد أستطيع المقاومة مرة أخرى. رجعت إلى الخلف، أغلقت الباب، دخلت غرفته واقتربت منه، اعتدل وجلس، الشمس كانت عامودية عليه، مسلطة عليه كممثل مسرحي تظهر لي كل ملامحه.

- أنت مش مبسوط إنك بتشوفني الفترة دي؟

- أنت مش حقيقي..

- أكيد مش حقيقي.. أكيد.. بس البيت دا الحاجة الوحيدة اللي مخلياني موجود وحقيقي حتى لو في عقلك، البيت اللي أنت عايز تخلص منه دلوقتي.

- ولو ما خلصتش منه هيخلص مني!

- هتكون معايا، هنعيش فيه بروحنا زي ما كنت بتشوف قدري عايش فيه كدا.

- أنا مش عايز أموت.. على الأقل دلوقتي، أنا عايز أحسّن شكلك وما أخليش حد يقول عنك حاجة ولا حتى أمي!

- الناس مش هتبطل.. وأنا مش فارق معايا، أنا فخور بيك وبكل اللي أنت حققته لغاية دلوقتي، تعالى اقعد جنبي وهات المفتاح دا، ارتاح وسيبك من صراعات أنت مالكش دعوة بيها.

أخذت خطوةً إلى الأمام.. أخرجت المفتاح، اقتربت لأحتضنه، فرد ذراعيه لاستقبالي، حتى سمعت جرس هاتفي، كانت أمي.

- ألو!

- أيوا.. ما تاكلش برا النهاردا، هستناك نتعشى مع بعض، أنا نزلت دلوقتي أجيب

طلبات وهجهز لك أكل، بقالك كتير ما أكلتش في البيت.

ظل فاردًا ذراعيه ينتظرني بابتسامةٍ ويهز في رأسه لتحفيزي للاقتراب، دسست المفتاح في جيبي مرة أخرى وخرجت سريعًا، وبعد أن كان عاجزًا عن الاعتدال أصبح الآن يهرول خلفي، كان نزولي على الدرج كطفلٍ صغير في العاشرة من عمره، أصبحت أقفز وأقفز حتى وصلت إلى الشارع.

وصلت إلى بيت القبرصي، مرفوع الرأس أنتظر الثناء على عبقريتي وإنقاذهم، بعد سنوات ومحاولات كثيرة من مُلاك البيت لم يستطع أحد حل لغز القبرصي غيري، أثبت اليوم أني مميز، مختلف، عظيم في بعض الأحيان، كانوا لا يزالون على ذلك الوضع، يبعثرون في البيت، يبحثون في كل شيء.

- بتدوروا على دا؟

قلتها باستعلاء وأنا أرفع المفتاح إلى أعلى كالحائز على إحدى الميداليات الذهبية، تجمعوا حولي وظلوا يتفحصوه.

- لقيته فين دا؟

قالها أحمد في دهشة وهو ممسك بالمفتاح.

- أول ما قلت ممكن يكون في حاجة من حاجتهم افتكرت إني كنت لقيت فرشاة هنا شكلها قديم جدًا كانت عندي في البيت، وطبعًا أخدت نصيبي من اللعب اللي بيلعبوه معانا.

- خلينا نجرب أصلًا نشوف هيفتح ولا لأ.

صعدنا جميعًا إلى غرفة القبرصي ذات الباب الأسود، وبعد تأهب كل الحاضرين وكأنها ركلة جزاء في نهائي أكبر بطولة في العالم، حتى ظننت أن ضبع سيقوم بثني جلبابه والتهليل.. فُتح الباب.

الغرفة كانت صغيرة نسبيًا، لم تكن على أي طراز، كانت غرفة فقط، كان ذلك كل ما استطعنا رؤيته بفضل بعض الأنوار المتسللة من الخارج، لم يكن هناك أي أثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمفاتيح كهرباء أو أي مصباح حتى إن كان معطلًا، أحضرنا مصباحًا شديد الإضاءة كان يستعمله العمال في مثل تلك الغرف، وقمنا بتثبيته أعلى الباب حتى يضيء كل شيء، كانت طبيعية تمامًا، بها بعض الأشياء المهملة، صندوق خزينة ملابس قديمة كساها التراب، وعصا خشبية أظن أني رأيت أجزاء منها في لوحة القبرصي، كان مقبضها على شكل رأس وحشه المفضل، ككل شيء في البيت، منضدة صغيرة وبعض الشكائر الفارغة، كل ذلك كان طبيعيًا، باستثناء شيء واحد فقط.. الغرفة، كانت مغلقة تمامًا دون أي نوافذ، دون أي مصدر للهواء.. وظلت كما هي وكأنها تُفتح وتُغلق كل يوم أو كل ساعة، ولكن الأهم الآن أن القبرصي ليس هنا.

- بس كدا؟

عقبت فرح وهي تتجول داخل الغرفة بخطواتٍ حذرة، وتلامس كل شيء بأطراف أصابعها.

- ما أظنش إن الأوضة دي تبقى عادية أو مافيهاش حاجة وإلا ما كانش خبوا المفتاح جوّا فرشاة، وكان دا الباب الوحيد الحديد اللي في البيت. الأوضة دي شايلين فيها حاجات مهمة.

وضعت يديها داخل صندوق الملابس بحذر ، حاولت تفادي الأتربة التي تغطي الصندوق دون جدوى ووسط نغمات تقلب الأقمشة القديمة من شدة حالتها القديمة عند تحريكها تصدر غبارًا جعل فرح تبدأ في حالة سعال، وفي النهاية ابتسمت وأخرجت لفافة ورقية كساحر استعراض واستكملت حديثها.

- زي دي مثلًا...

وفي جزء من الثانية ترك كل مِنا ما يبحث فيه، وتجمعنا حول يد فرح كخلية بشر.

- أنتِ قلتِ لي أنتِ في مدرسة إيه؟ صح!

- مدرسة إيه؟!

- آه، أنتِ مهندسة صح، أنا آسف.. نسيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوراق كانت متهالكة، حتى أن عصام مزّق قطعةً منها بمجرد جذبها ببطء، اللغة المكتوب بها الأوراق مألوفة بالنسبة لي، قد أرسل إليَّ القبرصي رسالة بها من قبل، كانت اليونانية، أبعدتهم جميعًا عن الأوراق كشرطيٍّ مباحث، وتركتها على المنضدة برفق مبالغ فيه، أخرجت هاتفي.

- ألو.. أنت فين؟

- في البيت.

- عايزك في شغل جنب بيتك، هبعتلك اللوكيشن، ربع ساعة أو أقل كمان تبقى عندي، تعالى بالبيجامة عادي، وهديلك الفلوس اللي تطلبها وزيادة بس تيجي بسرعة.

الأموال هي كلمة السر لأي شخص مهما كان منصبه أو عمله أو شخصيته، فبعد ما يقرب من نصف الساعة حضر مروان مرتديًا ملابس رياضية ونعلًا منزليًا.

- فيه إيه يا هشام؟ إيه اللي حصل؟

- الورق دا عايزين ترجمته ترجمة حرفية، وحالًا..

- دا يوناني؟

- لأ غباء مش عايز.. ما أنا عارف، أومال أنا جايبك ليه؟

جلسنا جميعًا متفرقين في غرفة النوم الرئيسة، كنت أقف بجانب النافذة وقد رأيت قدري بسيجارته المعتادة، رفع قبضة يديه اليمنى في تحفيز وكأنه يقوم بتشجيعي، أشحت بنظري في اتجاه مروان، لا يهمني الآن أي شيء غير معرفة ما بداخل تلك الأوراق.

إلى أن بدأ مروان في السرد...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ميناء الإسكندرية، 829 هجريًا/ 1426 ميلاديًا..

الظلام.. فقط الظلام يتسلل إلى كل مكان يتخلله أصوات أمواج البحر، مصباح خافت يروي المشهد بعض الشيء على سطح السفينة، مجموعة كبيرة من البشر مقيدون من الخلف ينظرون جميعًا إلى الأسفل طمعًا في ملاقاة الأرض واحتضانها لأخذ بعض الراحة، في كل ساعة يسقط أحدهم من الإرهاق، يتفحصه الحراس، مَن يجدون فيه المنفعة والقوة في الجسد يجرونه إلى مساحة فارغة حتى يفيق، وأما الهزيل فيأخذونه بكل رفق ولطف إلى البحر حتى يلقى الراحة الأبدية.. أصوات ارتطامهم بالبحر تعطي جرس إنذار للباقين، يرفعون رؤوسهم جميعًا، يشيحون برؤوسهم عن الأرض حتى يجاهدوا أعينهم ويحفزوا أقدامهم كي لا تخونهم، يحدثونها في رجاءٍ شديد التوسل. يُسمح لهم بالجلوس بضع ساعات في اليوم فقط في مساحة قليلة من كثرة عددهم، في قوانين الحرب أول غنائمها هم الأسرى، يأخذهم المنتصر حتى يعاونوه في أعمال السحر دون مقابل، هكذا الحال على إحدى سفن الأسطول البحري للسلطنة المملوكية المصرية بعد انتصارهم على المملكة القبرصية في حربٍ دامت ثلاث سنوات، وفي مرحلتها الأخيرة تم أسر 3700 أسير قبرصي، من بينهم ملك القبرص نفسه وأمراؤه.

Telegram:@mbooks90

وبعد أيام، احتفل سكان القاهرة مهللين بنجاح الحملة، موكب ضخم للجنود المنتصرين تجوب شوارع القاهرة، خلفهم جموع الأسرى، وكنت ضمنهم، مكبلون بالأصفاد، يُلاحقنا السباب والرجم من المشاركين في الاحتفال.

بعد انتهاء الاحتفال، استقرَّ مصيرنا بأسواق بيع العبيد، وأصبحنا ملك اليسرجية المتفرقين في أنحاء السلطنة، نباع في أحد الأسواق بمنطقة بباب الشعرية، كنت أفقه لغتهم، تعلمتها، وأصبحت الرسول الدائم لأراضي العرب، اشتراني أحد التجار (عثمان)، كانت تجارته مقتصرة على الخشب، وكوَّن من ورائها ثروة ضخمة، كان يعيش في مصر السفلى، سافرت معه أنا ومجموعة أخرى طوال ثلاث سنوات، كنت أنتظر طويلًا فرصة هروبي، سخَّرني في كل الأعمال التي أجيدها والتي لا أجيدها، وكنت دائمًا أستجيب لأوامره، وبفضل إجادتي العربية اكتسبت تميزًا عن البقيَّة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبحت ساقِيهِ الخاص، أسقيه الخمر كل ليلة، يبوح بكل ما يعلمه وما يجهله، حكى لي عن ألف امرأة، لم يكن يكتفي بزوجاته الأربع، وأكّد أنه أحبّهم جميعًا، حكى لي عن أجداده الممتدين لشرق الأرض، وقد حكموا العالم في يومٍ من الأيام وأقسم لي أن جده هو هولاكو خان، ولولا سوء الحظ لكان انتصر على المماليك وأصبحوا خدمًا عنده كما كانوا قبل سلطتهم، عبيدًا مشتتين في الأرض.

حكى لي عن رحلاته في باطن الأرض ورؤية المسيح الدجال، وسفره إلى نجوم السماء، وعدم عثوره على أيٍّ من آلهة الإغريق أو المصريين القدماء، (كفرة ولاد كلب.. أنا شوفت بعيني ما كانش فيه حد هناك)، اعتدت على ذلك مع الوقت حتى أني بدأت أستمتع بخياله، وفي ليلةٍ بعد خلافاته مع أقاربه، استدعاني، تجرَّع الخمر للحد الذي لم يصل إليه في أي ليلة، بدأ يشتكي من عدم تقدير المقربين منه واستغلالهم له وانتظار موته للاستيلاء على أمواله بعد مرضه الأخير الذي جعل موته وشيكًا، جذبني ناحية الشرفة وأشار لي إلى صخرة في أرض خلف منزله، أخبرني بأنه دفن كل ماله وذهبه بجانبها حتى لا ينعم أيٌّ منهم به، وبما أنه لم ينجب في حياته قط فلا حق لأحد في ثروته.

ظللت أنتظر كل ليلة الفرصة، أزوره كل ليلة، يتجرَّع الخمر، فأستمع إلى حكاياته وينام، أنتظر الليلة التي ينام فيها الجميع وحتى العاملون في منزله، لم ينهني أحد قط عن سقايته، بل كانوا يشجعونني على زيادة جرعات الخمر، ربما يكون له تأثير أكبر في البشرى الكبرى، وفاته.

بعد أسابيع، وفي ليلةٍ مُكتملة، القمر نزل من السماء، وتم إعفاؤه من الحياة ودون أي مجهود مني، علمت بوفاته بعد آخر كأس تجرَّعه، استغرقت وقتًا قصيرًا حتى عثرت على ثروته المدفونة، أخذت ما يكفيني وأقدر على حمله دون معاناة، فلقد كانت ثروة هائلة بالفعل، وندمت بعدها أنني لم أنتزع منها أكثر، هربت وعُدت مرة أخرى إلى القاهرة، ولكن في مكانٍ خاوٍ على أطراف المدينة، حتى أبتعد عن الأعين والصخب، تاجرت في كل شيء، ما لديَّ علم به وما لم أعلم به من قبل، ولكن ظل وطني يراودني، أشتاق إليه وأحلم بالرجوع مرة أخرى مرفوع الرأس، ولم أستطع

أبدًا العودة، بنيت بيتي هنا وجعلته يشبه وطني في كل شيء، حتى أنه حمل اسمه. (بيت القبرصي) ولكنه ظل ينقصه شيء.

مللت المكوث بمفردي، وقررت شراء جاريتي كما يفعلون، ووجدتك، فأصبحت العبد بدلًا من السيد، عدت أسيرًا مرة أخرى، ولكن تلك المرة أنا من طلبث الأسر، وجدت بك الكون لا الوطن فقط، أصبحتِ شعب وسكان وطني الجديد، أكملت تلك القطعة المفقودة بالبيت، لم أشعر بتلك الحالة حتى قبل أسري، أحببتك.. أحببتك بالفعل يا (إدونيا).

خشيت بعد سنوات أن يتوارى جسدي هنا تحت التراب، ويهدم وطني الذي بنيته كما يهدم أي بيت بعد سنوات، ولن يعود رفاتي إلى قبرص مرة أخرى، حتى وجدتها، قابلت عرّافة غجرية جشعة، مقابل الكثير من الأموال، أخبرتني بأن بيتي كالجسد، وأن جرحًا بسيطًا في عظامه ودفني بداخله كفيل بخلودي بداخله للأبد، ومنع أي أحد من هدمه، بل جلب من يُرمِّمه بعد أن يظهر عليه علامات الزمان.

وصيّتي إليك بفعل ما أخبرتني به، حتى أستطيع الحفاظ على وطني.

أسيرك الراضي: أركون.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أركون! القبرصي اسمه أركون! اسمه وحش أوي..

كان أول تعليق مني بعد سماع القصة وسط تأثر البقية، وعدم تأثري، ربما لأنه على وشك قتلنا دفاعًا عن بيته، ربما.. أنا قاسي القلب بالفعل. هرب مروان بعد ما قرأه وبعد أن أخذ أجره كاملًا، ففي أغلب الظن لن أكون على قيد الحياة في وقتٍ آخر حتى يضمن أجره.. (أنا أصحابي بيحبوني جدًا).

بدأ أحمد الحديث بكبرياء المهندس المعتاد:

- اللي هو كاتبه معناه إنه مدفون جوا حيطة من حيطان البيت وممكن يبقى في الأوضة هنا ما دام هي اللي كانت مقفولة، فلازم نبدأ نكسر هنا الأول.

صاح فيه عصام بصوتٍ عالٍ:

- ما ينفعش طبعًا، دا عامل غلبان كسر حاجة من غير قصد، مات موتة ربنا ما يكتبها على حد فينا، نقوم إحنا كاسرين الحيطان بإيدينا، أنت متخيل هيحصل فينا إيه؟!

- كلامه صح.. بس لازم نعرف المكان فين، تخمينه واحدة ويا تصيب يا تخيب، بس لو خابت هيبقى فيها موتنا.

كنت أنتظر رد فعل ضبع من بداية الحديث، وتعجبت من تأخرها.

- بقول لك إيه، أنا ماليش دعوة، أنا رايح أقف قدام البيت في مكاني، تصيبوا بقى تخيبوا دا مش شغلي، أنا مال..

وقبل أن ينتهي من حديثة الدنيء، عُزفت مقطوعة القبرصي المفضلة، بدأت في رفقٍ حتى تعالت وأصبحت أسمعها كما كانت بجانب أذني، خرجنا جميعًا إليه، ولأول مرة أرى ملامحه الغاضبة، اتسعت حدقتا عينيه إلى ألف ضعف، نظر إليّ في انزعاج، كان يقف في منتصف مدخل البيت ويده خلف ظهره وبدون زوجته تلك المرة، أو بمعنى أدق بدون (إدونيا)، يصاحبه تلك المرة ضأنه البري في وضع استعداد ينتظر إشارة من سيده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدثني وفي صوته نبرة تحدٍّ غاضبة:

- أنت عايز تغير نظام استمر هنا كل السنين دي؟

- أنا عايز بيتي.

بدأ الضأن في الاقتراب مني فأخذت خطوتين للخلف.

- دا بيت القبرصي، بيت أركون، ولمدة 600 سنة كان بيت القبرصي وبيت أركون، وهَيفضل كدا لغاية ما الأرض كلها تنتهي، وقتها بس هسمح إنه يتغير.

اتجه أحمد إلى والده الجالس على البيانو الخاص، ينظر إليه في اشتياق أعرفه جيدًا، سمعت صراخ فرح فاتجهت ناحيتها، كانت تُجَر إلى الطابق الأعلى من قبل سيدة شاحبة الملامح، تمسك بشعر فرح وتجرها منه، بالتأكيد إنه شبح زوجة أبيها، حاولت أن أحررها من يديها ولم أستطع، نظرت إليّ وصرخت بوجهي، صرخة تعدت سرعة الصوت، ألقيث على ظهري، كان أحمد قد تحرك مع والده باتجاه السلم، وظل البيانو يعزف بمفرده، انتبهت في الأعلى إلى عصام، جلس مقرفصًا يداعب ابنه الذي يلعب بكرة بلاستيكية ويلقيها بداخل الغرفة ذات الباب الأسود.

في تلك اللحظة، علمت حيلة القبرصي، يريد حبسنا جميعًا في تلك الغرفة وقتلنا بداخلها، يريد عمل مجزرة بطيئة. فقدت صوتي، لم أستطع مناداة أحدهم، حتى ظهر أبي من خلف القبرصي، أشار لي في تحية وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة لطيفة، اقترب مني، شعرت بشلل في كل أطرافي ولم أستطع النهوض.

ولكن قبل أن أتحرك، ارتسم أمامي مشهد وحيد، كان القبرصي خلفه لوحته القديمة وبجانبها نافذة ينظر إليّ منها قدري في شفقة، لمَ أنا مقبل عليه؟ نظرت إليه وإلى اللوحة، ذلك الشيء الوحيد الذي لم يتغير في البيت على مدار 600 عام، حتى إطاره الخشبي القديم، لم يتحرك طوال تلك المدة، حتى نحن لم ننتبه له أو نُحركه ولو بوصة من مكانه.

زحفت على يدي بسرعة كطفلٍ صغير ولكن في الثلاثينيات من عمره، يراقبني القبرصي وأبي بأعينهما، استندت إلى البيانو وغرست يدي في اللوحة ومزّقت جزءًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بأس به، كانت الحجارة خلفها مختلفة عن كل البيت، سمعت صوتًا يناديني ويلقي بجانبي مطرقة كنا نستعملها في محاولة فتح الباب الحديدي في الصبح، تتبعت الصوت لأجده ضبع، ينظر إليّ في فزع منتظرًا مقابل فعلته، ولكن ضأن القبرصي لم يتحرك في اتجاهه، بل تحرك في اتجاهي أنا، أمسكت المطرقة في محاولةٍ للدفاع، ولكن قبل أن يصل إليّ أدركت النهاية، أغمضت عيني حتى لا يكون آخر ما أراه هو وجهه ضأن بري متوحش وهو يغرس قرنيه في جسدي، بدأت في الصلاة من أجلي، أقرأ شهادتي، وأتذكر أمي التي سأتركها بمفردها، ستشمت فيّ بعد أن يكون رأيها هو الأصح، حتى بعد موتي.

ولكن لم يحدث شيء، عمَّ الصمت للحظات، ظننت أنها سكرات الموت الآن انفصلت روحي عن جسدي وتوقفت الدماء عن عقلي، ولكني استطعت فتح جفوني مرة أخرى، كان أمامي أحمد وقرن ضأن غُرس في جانبه الأيمن، بعد أن افتداني بجسده.

لم أمضِ وقتًا في الفزع، مددت يدي إلى المطرقة وبدأت في تحطيم الحائط بكل ما أوتيت من قوةٍ وصراخ ممتزج ببكاء من كثرة الخوف. ركض القبرصي في اتجاهي، وأزاح الضأن (أحمد) عن قرنيه، وقبل أن يغرسها مرة أخرى بداخلي، بدأت بقايا عظام في السقوط من ذلك الخرق الذي تسببتُ فيه في الحائط.

اهتزَّ البيت، اهتزَّ بقوة مليون تسونامي وصوت البيانو أصبح صوت انفجار عظيم، وضعت يدي على أذني وآويتُ إلى الحائط.

لم تكن السماء تمطر، ولم يكن بها رعد أو برق أو غيوم، كما نشاهد في تلك الليالي، ولكن الشمس ظهرت بالفعل، كان فجر يوم جديد، فرح يوم اختفى فيه القبرصي وضأنه وكل ما يخيله لنا، وتبقت فقط بعض من رفاته بجانبي.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد شهر..

بيت (هشام حسن الوالي)، الإضاءة بكل مكان داخله وخارجه، وحتى على شجرة الرقع، زُيِّنت كما لو كانت شجرة عيد الميلاد المجيد، والجميع حاضرون بالملابس الرسمية في مراسم الاحتفال بإتمام صفقة بيع البيت، الجميع يرقصون الآن باستثناء القبرصي وزوجته، عصام اصطحب زوجته التي اضطررت لاحترامه أمامها، ومروان بعد أن هرب ولكن يظل له الفضل في فك رموز الوصية، لم أنسَ أمي حتى أثبت وجهة نظري، وظلت تقسم لي أنها كانت تشجعني على تلك الخطوة بعد رفضي أنا المغامرة حتى قاربت على تصديقها بالفعل، حتى ضبع بعد أن فعل ما غفر له كل شيء باستثناء رائحته الكريهة، كان يقف بجانب طاولة الأكل بالتأكيد، فرح أتت بفستان سهرة أحمر، لم أستطع مقاومته تلك المرة، أثنيت عليه بتكبُّر ظهر عليه الاصطناع، قدري ظل يشاهدنا من خلف النافذة تلك المرة بنظرةِ فخر، حركت شفتي بكلمة (شكرًا) مع ابتسامة امتنان لم أبتسمها لأحدهم في حياتي، بدأت نغمة البيانو تعزف ببطء (comptine d'un autre été) يعزفها أحمد بيده اليسرى فقط، ويده اليمنى ملفوفة في ضمادة طبية بعد أن أصابه الضأن في جانبه الأيمن واستطاع التعافي منها. اقتربت من فرح، لم أبذل مجهودًا في طلب الرقصة، وافقت في الحال بمجرد مد يدي (هي تطول؟!).

- أنا كنت خايف عليكِ اليوم دا على فكرة، وأنتِ الوحيدة اللي حاولت أنقذك من اللي بيحصل..

- بجد! اشمعنا أنا يعني؟!

- عشان الصراحة بتعملي شغلك كويس وبتاخدي فلوس قليلة، أنا لو قعدت أدور سنة قدام مش هلاقي حد كدا.

أومأت برأسها ونظرت إلى الأرض في يأس.

- بهزر بهزر، فرح أنتِ بتشربي سجاير؟

- سجاير؟ لأ طبعًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آه صح، سجاير إيه، أنت بشكلك دا تشربي لبن ميكس شوكولاتة..

وسط أصوات الضحكات والزحام والأنوار وانشغال الجميع، وقعت عيني عليها تمشي وسط الحضور، تبحث بعينين حزينتين بملابسها البيضاء المعتادة وشعرها الأحمر الأسكتلندي، تبحث في وجوه الحاضرين جميعًا عن حبيبها الذي تركها في البيت بمفردها، ثم نظرت إليّ في وعيد.

- إيه؟! لحظة! إحنا نسينا إدون...!!

النهاية

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner